عيدان السماسم

عيدان السماسم

«سجلات القهر»

مجموعة قصصية

سماح العيسى

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
٢٠١٦م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

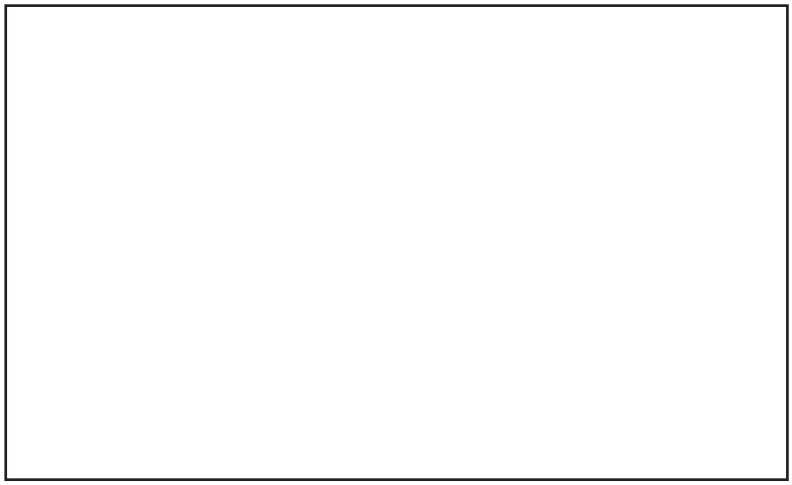

إهداء

وحدك كنت ..
تناثر جبينك بسرعة الضوء
حكايا موت كثيرة ..
لك وحدك ..
لجبينك
لصوتك الذي اختنق
لوداعنا الذي لم يكن
و لقائنا المعلق على شجرة الغيب ..
هنا .. أضع الورد على تربتك
و أثأر لنا ..
بقلم و رصاصتي
كلمة حق
إلى أخي الشهيد أمجد العيسى

سماح

مقدمة

عَـن جَابِـر بْـن عَبْـدِ اللَّـهِ عَـنْ رَسُـولِ اللَّـهِ صَـلَّى اللَّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ قَـالَ - عـن الجهنميـين - أنهـم (يَخْرُجُـونَ مِـنْ النَّـارِ بَعْـدَ أَنْ يَكُونُـوا فِيهَـا ، فَيَخْرُجُـونَ كَأَنَّهُـمْ عِيـدَانُ السَّمَاسِـمِ ، فَيَدْخُلُـونَ نَهَـرًا مِـنْ أَنْهَـارِ الْجَنَّـةِ فَيَغْتَسِـلُونَ فِيـهِ فَيَخْرُجُـونَ كَأَنَّهُـمْ الْقَرَاطِيـسُ)

رواه مسلم (١٩١) .

و كان أخي مسفوح الدم على قارعة الطريق..
يرتقي نحو السماء بهدوء
لم يستثره ضجيج الحياه ..
و غط بموت هنيء ..

الرواية الأخرى للحكاية الأخيرة

و أخيرا سأحكي لكم القصة ..
فأنا أعرف أنكم متشوقون لتعرفوا ما الذي حدث قبل ذاك الحدث .. و أنا أعلم أن منكم من تأول على وجعي و حاك من التفاصيل المبهمة رواية تقبلتها عقولكم .. و بينما كانت قلوبكم تعتصر قهرا .. كانت أعينكم ترسم ظلي الطويل على أرضية المشهد لتكتمل الصورة .. و تخرس الأسئلة الملحة في رؤوسكم عن الهمز و اللمز .. و العويل ..
في ذلك الصباح الصيفي .. بعد أن رفعت الشمس حجابها شيئا قليلا .. بقدر يتيح لي العبور متيقظا تماما من غرفة الحراسة -التي قضيت الليل فيها- حتى باب سيارتي الصغيرة و التي هي نوع من السيارات أستطيع القول أنه هجين بين السيارة و الشاحنة ..
فتحت الباب ألقيت بجسدي على الكرسي و تلفظت بعبارات استفتاح النهار .. و ذكرت الإله كثيرا .. ازدردت ريقي المتلاشي .. ثم نظرت للساعة أتفقدها لأعرف ساعات عطشي كم ستطول في هذا اليوم «الآبي»؛»الرمضاني» ..
لابد أن أمامي نهار طويل .. سأقضي نصفه بالنوم فليلة الحراسة كانت مرهقة و جسدي تحت وطأة الإرهاق و الصوم كان يطالبني بالراحة ...
شددت لجام السيارة فراحت تعدو بي قاطعة الشوارع شبه الخاوية إلا من عدد من الموظفين الذي يبكرون إلى أعمالهم .. كنت أسير على الخط الموازي لهم .. و المعاكس تماما لاتجاههم ..
لم تأخذ المسافة إلى شارعنا وقتا طويلا .. و ما كان يجدر بها أن تأخذ وقتا طويلا .. فالطريق سالك .. سالك جدا لدرجة أنني لن أتأخر عن معانقة القدر الذي ينتظرني هناك ..

قبل أن أصل إلى حارتنا قررت أن اتفقد الجوال انتبهت
لرسالة من أحدكم ،لايهم من منكم ..
فربما أنتم تعرفون من هو !!
و ربما جميعكم بعثتم لي فحوى تلك الرسالة لكن بطرق مختلفة ..
-»لا تعد للبيت .. الوضع خطر جدا في الحارة « ..
-أغلقت الجوال و هززت رأسي رافضا هذه الأفكار التحذيرية المبالغ فيها ،و تمتمت لنفسي أني قرأتها متأخرا أصلا و لن أرجع الآن فقد وصلت ..
و لم أكن أعرف لحظتها أني قرأتها في الوقت المناسب .. المناسب تماما .. لم أتأخر عن قراءتها .. كما أنني لم أتأخر عن قدري المنتظر .. هنا .. في هذه الحارة ..
-أمامي كان يقف ثلاثة أشخاص ببزاتهم العسكرية ؛يتهيأون لاستقبالي ..
وجوه معتادة .. مألوفة .. تشبه وجوه أصدقاء كانوا لي .. تشبه وجوه جيران .. زملاء دراسة ..
-وجوه مألوفة حد عدم التمييز بينها و بين وجهي ..
كان هذا قبل أن تتبدل ملامحي في ثانية و تتغير وجوههم ..
-استوقفوني ..
سألوني ؛ استجوبوني ..
ثم صاح أحدهم بصوت أعلى مما يجب .. و أكثر صخبا مما تتحمله المسافة الضيقة التي تفصل بين شفتيه اللتين تضمان سيجارته و بين وجهي ؛ انتزع السيجارة بصعوبة من فمه ..
و رفع يده عاليا و كأنه يعطي إشارة البدء للمشهد التالي ..
- و صاح بي :» امشي .. يلا .. « ..
و أنا مشيت ..
هو الوجه الذي اعتدته .. و تآلفت مع اختلافاته ؛ أشار لي أن امضي فمضيت ..

لم ابتعد أكثر من مترين .. حتى شعرت برأسي يرتج .. المقود تفلت من كفي .. العطش ازداد في حلقي .. ريقي جف أكثر فأكثر .. ثقلي يتلاشى .. وجهي تتبدل ملامحه ..
وجهي يتركني .. جبيني يقطر دما ... جبيني يغادر ملامحي .. ملامحي تغادرني .. لم أكن أدري إلى أين لكني بعدها عرفت أن وجهي هرب قبل اكتمال المشهد هرب يختبيء في مآقيكم ..
-عاد الثلاثة ببنادقهم يقتربون مني .. يلهثون .. أسمع ضحكاتهم تصيح في أذني ..
لازلت أحس بعطش .. أحاول أن أحسب ساعات صومي ... أفشل في إدراك الوقت بغير جبين ..
وجوههم تدنو .. رائحة سجائرهم تملأ أنفي ..
حرارة النار في رأسي تفتر ..
جسدي الآن على وشك التمدد تماما .. تدلت يدي خارج الشباك الصغير .. كانت تلوح للزقاق مودعة ..
-حملتني أيديهم خارج السيارة .. لكني الآن كنت خارج جسدي تماما فلم أشعر بنتانة الأيدي التي ترفعني ..
كنت أرقبهم من الأعلى .. بالقرب من بندقية لم تتبدد حرارتها بعد ..
كنت أبصرهم كيف ألقوا جسدي أرضا .. و تكاثروا حوله ليتقاسموا الغنائم .. و إلى جانبي عين كانت قبل لحظات قد تلقفت وجهي .. فأمطرت جبهتي رصاصا ..
مدت أياديهم إلى جيوبي ..كان ذاك الجسد الذي كنته .. ثقيلا بقدر الموت .. فلم يتمكنوا من نبش جيوب بنطالي.. مد أحدهم مشرطا و راح يمزق البنطال.. و جسدي يستقبل المشرط بصدر رحب و مع انهتاك ستر القماش كان شيئا من لحمي يمتزج مع البنطال و المشرط .. و أنا أراقب المشهد على مستوى نظر القاتل .. مسكين كم تألم حينها جسدي ..
تقاسموا مافي الجيوب.. و رجعوا إلى أماكنهم.. و تفاديا لمنظر الموت في

وجهي الذي هربت ملامحه.. رمى أحدهم عليه قطعة قماش.. أظن أن رائحتها وخزت أنفي..لكني لم أشعر بها ..

تلك الوجوه التي كبرت و أنا لا أميز بين وجهي و بينها .. في لحظة النفس الأخير شرعت نوافذ بنادقها على وجهي ..

فرأيت فيها مالم أكن أرى ..

وددت لو أخبرتكم حقيقة الحكاية .. لكن صوتي لم يعد ملكي .. لم يستطع أن يلجأ إلى مسامعكم قبل انحساره .. ليتني أطلقته في صرخة أخيرة .. لكنني مت بصمت كامل .. فقد كنت أعلم أنكم كنتم نيام .. فما أردت إرهاق غفوكم..

ها أنا الآن أتمدد على متن جسدي المرهق تماما .. و المسترخي تماما .. ريثما تمرون فتحملونا معا .. و ها أنا أبصر الشمس تكشف لي وجهها كاملا .. و تغريني بالسماء... وها أنا أقرر الصعود .. تاركا لكم حرية إكمال المشهد على هذه الأرض ...

-اكتبوا اسماءهم .. اسما اسما ..
قبل أن تختزل الأبجدية بأرقام ..
اكتبوهم أصحاب الأخدود
أبناء الظلام ..
غفوا على كتف الجدار
يحتضرون الروح بتأن ..
يلفظون الحياة
بصرخة في وجه الظُّلَام
فتبتلعها الأرض بصمتها المقيت
اكتبوهم اسما اسما ..
أجساد ما اتسع لها قبر
تحت خانة المعذبين
في سجلات القهر ..

الذين لم يموتوا كما يجب

حارس الموت يفتح الباب الفاصل بين الجحيم و الجحيم ...
جحيمان لا فارق بينهما الا الرائحة و الضوء ..
ذلك أنه حين تكون في قبر مثل الذي ألقيت فيه منذ زمن ستخشى أن تفتح أبوابه فيطل عليك سجانك ليسوقك إلى موت جديد ..
رحلة لا تنتهي من العذاب .. تسحب من روحك إلى مسلخ الانسانية .. ليطبقوا ما لديهم من فنون تعذيب كلها أحكموها حتى تصل بروحك إلى أطراف الموت تذوق سكراته ثم يعودوا ليجذبوك من أهدابك زحفا على وجهك إلى الحياة في زنزانة الموت المستمر ..
ومذ لحظة صحوك الأولى و حتى لحظة لفظ اسمك من فم «عزرائيل» السجن تظل خائفا تصلي فقط أن ينسوا وجودك .. أن يختفي من السجلات ذكرك .. و يتركوك تنعم و تكتفي بما تلقيت من جروح .. تدب أقدامه على الأرض مقتربا» .. و الخوف يسفك بالرجولة و الشجاعة .. من ذاق الموت ألف مرة تحت نعال هذي الوحوش المدربة .. لابد أن يرتعد خوفا من صوت تلك النعال و هي تقترب من بابه ..
سيفتح القبر و ننسل من أجداثنا التي ما هنئنا فيها بميتتنا الأولى بعد ..
المفتاح ينحشر في القفل .. اليد التي حملت المفتاح تضرب السلاسل يمنة و يسرة .. القفل يئز.. السلاسل تلطم الباب.. الباب يكشر عن أنيابه في وجه رعبنا .. الرعب يزداد .. اليد التي شرعت الباب تمتد لتسحب جسدا من كومة الأجساد المرتجفة ..لا على التعيين .. بدون اسم .. قرعة الموت بدون ذكر أسماء .. ضربة حظ .. سحب يانصيب لتوزيع جوائز جهنم على أجساد تختار وفق مزاجية السجان ...
يده تقترب مني رائحة القبور تنبعث بقوة أكبر .. و اليد تقترب أكثر

.. مسـافة ثلاثـة أنفـاس. . نفسـان .. نفـس .. و تلتقطنـي .. أفتـش عـن أنفـاسي لأخبئهـا في رئتيـي .. ألتقـط الهـواء أدسـه في فمـي و أطبـق أسـناني بإحـكام .. و أخبـئ الأنفـاس لوقـت لاحـق ..أمـا الآن و أنـا و أسـاق إلى سـقر فـلا حاجـة لي بهـا .. فـلأمـت الآن مطمئنـا ..

عينـاه تطلقـان الرعـب في كل نقطـة مـن الجسـد و ترجـف الـروح قبـل المسـام ...

نساق مثل قطيع أغنام لقدر اللاموت و اللاحياه ..

حيث لا تشحذ السكاكين و لا نمنح الموت الرحيم ..

حيث يتلذذ الراعي بسفك دماء الرعية و لا يهبهم االراحة الكبرى ..

نصعـد الـسلالم متاهـات .. درجـات ترتفـع بنـا و نهـوي بأخـرى عـلى وجوهنـا.. المـشي عـلى الـصراط.. وحولـك وديـان الجحيـم..

و خلفـك كائـن كان يصنـف مـن البـشر يركلـك كل حـين ليهديـك إلى الطريـق القويـم .. تتفلـت قدمـك عـن إحـدى الدرجـات ترتكـب الإثـم الأعظـم و تسـقط فينـزل عليـك مـن العـذاب مـا تسـتحق ..

لـن تأبـه لـكل الشـتائم و السـباب فأنـت فقـدت حاسـة السـمع منـذ عمـر و قهـر ..

و ضاعـت معـالم الكلـمات في روحـك حتـى صـارت بـلا معنـى .. حتـى صـارت تضحـكك و تضحـك الجـدران مـن حولـك ...هـي مـن شـعائر الحيـاة في معتقـل ..

حياة !!!! يا لبؤس الكلمة في هذا المكان ..

تطـوف حـول القهـر سـبعا .. أينـما تـولي وجهـك فالعـذاب واقـع .. مـن واد يكتـظ بألـوان المـوت و أصنـاف الويـل .. إلى واد آخـر أكـثر وحشـية تسـاق مـن ناصيتـك و لا تحـدث ضجيـج ..

مـن السـعي بـين الوجـع و الألم و حتـى رمـي الجمـرات عـلى أوصابـك .. فأنـت الشـيطان الأعظـم..

فجـأة ينطـق الجحيـم الـذي خلفـي.. ذاك السـجان الـذي كان يمـضي بنـا إلى حلقـة التعذيـب ... ينـادي و كأنـه اسـتذكر فجـأة مـا كان قـد أنسـته

اياه رغبته المتأججة بارتكاب العذاب فوق أجسادنا .. يصرخ مناديا باسمي و متبعا» إياه بما يليق و ما قدر له أن يذكر من الألقاب و الشتائم ..

أقف في ذهولي صنما .. أسأل الأرض أن تشق و تبتلعني .. تضحك الأرض في وجه بؤسي .. يرد صوتي دون أمر مني .. واشيا بي .. مصرحا عن وجودي ... «أنا .. أنا»

يتلقفني من شعري .. يجرني مبتعدا بي عن رزمة المساقين إلى العذاب ..

ليسلك بي ممرا آخر .. ترتعد أوصابي .. صوتي الذي وشى بي أول الأمر لازلت أفقد السيطرة على تسلله خارج فمي .. يخرج باردا ضعيفا هذه المرة .. بنبرة لم أعهدني أتكلم بها من قبل ..

لكن هذا الجسد ما عاد يطيق مبادئي التي أودت به و لا شجاعتي التي استأصلوها ذات قهر بفكي كماشة قبضت بإحكام على رجولتي .. حتى كادت تشلع الروح من جوفي ...

في تلك اللحظة فقط صارت صرخاتي أكثر فجورا .. و أظنني حينها بدأت أفقد هيبتي أمام جسدي المذبوح ..

و بدأ صوتي يزحف من حنجرتي جبانا لا يشبهني ..

في اللحظة التي قبض بكفه على منابت الشعر في رأسي ...

جاء صوتي كمواء قطة ينهشها الوجع و العطش و الخوف و كل أشكال الجحيم ..

«بترجاك لا تضربني ...»

هل قلتها !!..

تلك الجملة اللعينة التي عبرت حبالي الصوتية في لحظة انهزام .. كم كانت غبية .. لكنني كنت متعب .. مرهق أستجدي راحة .. جسدي موطئ لكل أشكال الموت الذي لايكتمل ... كان أكثر ضعفا من أن يصمت .. التقط صوتي و حرضه علي .. حتى اغتال الصمت و نطق .. لم يجب ذلك الجثمان المنتصب أمامي مشى و هو يجرني .. و كأن

مـوائي لم يصـل سـمعه ...
كان يمـشي مبتعـدا عـن منصـات التعذيـب .. و حلقـات المـوت الـذي لا يمـوت ..
كنـت أراقـب تغير معـالم المكان مـن حـولي بـدءا مـن البلاط الـذي صـار يبـدو لامعـا و نظيفـا.. لا بقـع دمـاء تتناثـر عـلى صفحتـه .. و لا ملامـح سـقطت مـن وجـه أحدهـم لتلتصـق بصـدر الأرض ..
وصلنـا أخـيرا .. عرفـت ذلـك .. حـين رفـع قبضتـه عـن رأسي و كأنـه انهـى مهمـة سـحلي عـلى أتـم وجـه .. وقـف أمـام بـاب ينعكـس الضـوء عـلى خشـبه البنـي اللامـع ..
نهرني بصوته الغليظ « وقف متل العالم ولاك ..»
كدت أسأله ماذا يعني أن أقف .. فقد اعتدت الزحف..
و المـشي عـلى أربـع كالـدواب .. تعبـوا كثـير حتـى علمـوني كيـف أمـشي مشـية البطـة .. و كيـف أعانـق الأرض كسـحلية .. أضنيتهـم حتـى اعتـدت نسـيان الوقـوف كشـوكة في حلـق الأرض ..
و الآن في لحظة مفاجئة يطالبني بالوقوف كما البشر !!!
حاولـت جهـدي أن أسـتعيد بشريتـي .. و أن أكبـح هـذا الصـوت الـذي كاد ينزلـق مـن شـفتي ليمـوء مجـددا بعبـارة أكثر سـخافة ..
أخـيرا .. فتـح البـاب و تقدمنـي ضرب الأرض بقدمـه و مـن ثـم سـحبني مـن كوعـي برفـق مبالـغ فيـه ..
و انسـحب.. تـاركا إيايـي في كامـل ذهـولي و انكـماشي في لحظـة مواجهـة مـع الضـوء و الوجـوه الكثـيرة ..
كانـت لحظـة الوئـام بـين عينـي و الضـوء متأخـرة بعـض الـشيء.. سـبقها انسـكاب الصـوت في أذني .. صـوت أعرفـه جيـدا .. ثـم جسـد يلتصـق بي يعتـصرني رائحـة أعرفهـا ..
انتظـر الضـوء .. انتظـر الوجـه المخبـأ خلـف الغبـاش لتكتمـل الصـور ليتيقـن جسـدي المنهـك مـن ملامـح الحقيقـة ...
تسلل صوتي من فمي مرة جديدة في ردة فعل لا إرادية «أمل .. !!»

و جـاءني صوتهـا .. «اي أمـل .. أمـل ..» و بكاؤهـا يخنـق الحـرف الأخـير مـن الأمـل ..

الضـوء يعانـق قزحيتـي .. وجههـا يطـل مكتمـلا .. أبعدهـا عـن صـدري لاتأملهـا .. لاتفحـص الصـورة الممتثلـة أمامـي .. تـدور الأرض بي .. الغرفـة بـكل مافيهـا تتـماوج أمـام عينـي .. أسـقط عـلى ركبتـي ..

هـذا الجسـد صـار منفصـلا تمامـا عـن ارادتي .. لا ادرك و لا أتحكـم بـكل مـا يفعلـه ..

كنت على ركبتي أمامها و هي تنتحب على بعد خطوتين مني ..

لمعـت في رأسي فكـرة واحـدة .. كلمـة واحـدة اهمسـها في نفـسي .. «سـأصلي» ..

أصلي!!

انا على ركبتي .. أينما يممت فثم وجه الله ..

و اللـه أرسـل لي وجـه أمـل .. حتـى لـو كنـت بعـد هـذه اللحظـة سـأموت .. لا يهـم ..

المهم أني تعطرت بعطر أطرافها و هي تلملمني ..

و انبعث دفء صوتها المخنوق بالعبرة .. انبعث في دهاليز أذني ..

و استحمت مآقي بشعاع وجهها ..

..!! سأصلي .. لست متوضئا !!.. لكني اغتسلت ألف مرة بدمائي

لست متوضئا ..!! لكني تطهرت ألف مرة من رجس الحياه ..!!

سأصلي ...

و انحنـى جسـدي اللئيـم .. بعـد عـدة محـاولات مـن إمـلاء إرادتي عـلى أوصالـه ..

أخيرا .. انحنى ...

سجدت .. لا أدري ماذا أتمتم في سجدتي ..

في لحظة الذهول تلك .. تلاشت ذاكرتي تماما ...

سجدت و أنا أردد «سأصلي .. سأصلي «

امتدت يد لترفعني من صلاة لا أفقه ما أقوله فيها ...

استندت بكفي على الأرض لأقف ..
كان وجه لم أألفه يقترب مني و يربت بود زائف على كتفي المخلوع ..
تمتم كلمات لم أقف عندها كنت منشغلا في الارتواء من ملامح أمل ..
و لفظت سؤالي المفاجيء في نصف حديثه المرتل على سمعي ..
كنت أسأل عن وجودها هنا .. و كأنني استفقت من لحظة الحلم محاولا أن افهم معالم الواقع ..
لم تجب هي .. كانت لاتزال غارقة في موجة الدمع التي تكتم صوتها ..
أجابني الآخر الذي لم يهتم لمقاطعتي .. فرد على سؤالي بجملة قصيرة و ابتسامة باردة « كانت ضيفتنا كمان .. «
ارتعشت و كأنني تحت وطأة الماء البارد الذي كان يصب على رأسي لأصحو كلما جذبني اللاوعي إليه ..
كانت ضيفتهم ... فاضت محاجري بالدمع .. و تكاثرت الآهات في حلقي فكدت اختنق ..
و رحت أتأملها .. آه يا أمل .. كم من الوجع احتمل جسدك الغض ..
إذا كان جسدي أنا قد تقيأ شجاعته و صلابته تحت وطأة عذابهم ...
كيف احتملته أنت !!
آه يا أمل .. هل أوجعوك .. !!
كم من القهر ذقت في بؤرة الموت هذه .. !!
تفلتت من جفني دمعة .. تماما مثلما كان يتفلت صوتي مني كل مرة ..
آه يا أمل .. كيف استوعب جسدك عذابهم .. كم مرة قهروك ..
لا أريد أن اسمح لخيالي أن يرسم شكلك و هم يتلذذون بصرخاتك ..
و يتفنون بابتذال وجه جديد للعذاب يمرغون به صباك ...
آه يا أمل .. كيف احتملت كل هذا ... كنت في غياهب الوجع .. كم

مـن المـوت اشـتهيت و لم تنـالي ..
كان صـوت ذلـك الرجـل الـذي تبينـت فيـما بعـد أنـه الضابـط المسـؤول عـن هـذه البـؤرة .. كان صوتـه لايـزال مسـتمرا في الطنـين بـأذني ..
كان يقـول و يقـول .. و أنـا عالـق في ضجيـج الفـوضى التـي ثـارت في داخـلي ...
لم أصـح منهـا إلا و أنـا عـلى ناصيـة الشـارع المواجـه لبـؤرة المـوت التـي لفظتنـا معـا .. أنـا و أمـل ..
كثمن لصفقة حرب .. كنا بدائل لجثث ..
اسـتبدلوا جثامينـنـا التـي أشـبعوها مهانـة بأكفـان ليكرمـوا مـن فيهـا فيدفنوهـم كـما يليـق ..
نحـن الذيـن كنـا كـما يعتقـدون أحيـاء .. كنـا جـزء مـن تلـك المقايضـة التـي ألقتنـا عـلى قارعـة الوطـن ..
آه يـا أمـل .. كنـت أرقبهـا بعينـي التـي مـا شـبعت مـن ملامحهـا .. و كانـت تهـرب بعينيهـا الفائضتـين بالقهـر و الوجـع ...
هـم أخرجونـا مـن أنفـاق عذابهـم و ألقـوا بنـا انـا و أنـت إلى أنفـاق عذابنـا الـذي يسـكننا .. و سيسـكننا ..
سـجنهم كانـت مفاتيـح اقفالـه بأيديهـم .. فتحـوا البوابـات و زجـوا بنـا للحيـاة .. لكـن سـجن قهـري لا مفاتيـح لأقفالـه .. لا نهايـات لسراديبـه .. لا ضـوء يقتلـع أعـين أنفاقـه ..
مشيت أجر قدميي .. و التفت حولي بغير وعي و لا ادراك ..
مـدت أمـل كفهـا المرتجـف دسـته في باطـن كفـي .. و كأنهـا تنقـذني مـن الضيـاع .. تنتشـلني مـن تيهـي
مشـيت إلى جانبهـا .. بوجههـا المنهمـك بالدمـع تحمـل ألـف محيـط في عينيهـا ... و أنـا أجـر جسـدي المتـلاشي .. مثقـلا بمئـة سرداب .. و آلاف الزنزانـات التـي ابتلعـت أقفالهـا فـلا نجـاة لي منهـا يومـا ...
و لا تـزال أمـل تغـرق أناملهـا في صحـراء كفـي .. و تجـر دمعهـا وراءهـا نهـرا بـلا ضفـاف ..

على جدار الروح

_هل أنا نائم .. ؟!
أم أن هذا العتم يحيطني من الخارج ..؟!
هل أسدلت جفني .. أم تراه الظلام مسدل من حولي ..؟
كم يوم ..!! كم يوم !!
_يا لغباء الفكرة .. و يالعبثية السؤال العقيم !!
كيف يمكنني أن أحصي هذه الايام المبهمة .. حيث لا شمس تعلن البزوغ و لا قمر يتقلص تدريجيا حتى اندثار الشهر...
لا أشهر قمرية و لا تقاويم شمسية ..
لا شيء هنا إلا اللاشيء المتكاثر .
ها أنا أسمعه يئن خلفي .. إذا« فأنا لست نائما.. أسندت ظهري إلى ظهره ليكون حائطي الآيل للموت .. و أنا شاهد قبره .. يئن منذ .. منذ .. منذ اللاوقت ..
كيف لي أن أخمن منذ متى و هو يئن و ساعتي البيولوجية معطلة و ساعات الحائط كلها بلا حائط و الحائط مثقل بحبال الموت المتدلية من سطحه ..
متقوقع على بقاياي المتبقية من عظام مكسوة بطبقة من اللحم الصالحة كوليمة لديدان الأرض و التي شارفت على الانتهاء من وجبتها الملقاة في آخر الزنزانة ..
خلفي قوقعة أخرى تئن دون توقف ..
ينخفض صوت الاحتضار حينا .. و يعلو حينا
ليغدو كصوت الحياة و هي تتمخض عن جنين جديد ..
جسد يحتضر و يتحضر للموت .. و روح تعاني آلام الولادة الأخيرة ..
هل هو الكهف الذي قد أ؛خبرنا عنه .. أم أنه الجب الذي ألقينا

فيه .. و ألقيت فيه الانسانية مسفوحة الدم.. مسفوكة الضمير .. خلع البشر جلودهم و صنعوا منها سياطا تنهال على أجساد تئن موتا .. و تنزف الروح ببطء ..
ملامح المكان تفوح منها رائحة جهنم .. أمتار أقل اتساعا من صدري الذي يضيق بأنفاسي .. تتسع لموتى العالم أجمع.. تتسع للبشرية التي تذبح هنا كل حين ..
أربعة جدران شيدت على شفا جرف هار .. على كتف الموت تقف متجبرة فوق أرواح الأولين و الآخرين .. أربعة جدران ارتفعت حتى غاصت في العتم الذي لا ينتهي .. باردة و قريبة حد الاختناق ..
السقف أراه تلاشى فوقنا و ارتفع حتى يترك متسعا للأوكسجين .. للحياة تبعث فينا من جديد فلا نفارق العذاب ..
و باب مخنوق بالصدأ كشف عن صدره لتتلصص عينا الجلاد على موتنا كل حين ..
وقف برزخا بين موت يحتضر خلف القضبان و حياة تدب خارجه .. بين ضحايا قابيل تدفنها غربان الظلم .. وبين سلالات القتلة التي لم تتعلم إكرام الموتى ..
لا يفتح إلا لانتشال جثة .. أو لانتقاء ضحية جديدة ..
حين قذفنا هنا منذ اللاوقت .. كنا مئة .. لكننا نتضاءل نتقلص .. و يتسع القبر أكثر كلما ازددنا موتا و تكاثرت جثثنا ..
الهواء يسرق جزيئاته من أنفاسنا .. يلفظ أول أوكسيد الموت في رئة الجثث المتكومة ..و يسرق آخر ذرات الحياة منها ..
العتم يلف زوايا المكان و يلفنا .. في قبر جماعي نحن على وشك الاكتمال ..
هو العتم الذي لازلت أرى من خلاله تلك الخدوش المحفورة بظفر الحياة على جدار الآخرة ..
و صنبور يقطر دما في الزاوية الأخيرة من العالم «الزنزانة» و نحن نموت عطشا على بعد خطوتين ..

أرتكـز عـلى كفيـي محـاولا» الوقـوف في مربعـي المحـدود المسـاحة في هـذه السـنتيمترات الضئيلـة المخصصـة لجسـدي ..
حيث تحتشد الأجساد الملقاة على حافة الحياة ..
أقـف أخـيرا بعـد عـدة محـاولات .. أنتصـب و أشـعر بـشيء عالـق تحـت قدمـي اليمنـى .. أحـاول أن أخمـن ماهيتـه .. أفـرك بقدمـي ذاك الـشيء .. أدهسـه تحتهـا .. أحـس بطقطقـة عظـام .. و لا أحـد يـصرخ ألمـا ..!!
أدرك أني أدوس كـف الجسـد المتكـوم عـلى يمينـي.. أدوسـها تحـت قدمـي ..
و أدرك أنـه قـد خلـع جسـد الحـس .. و انسـلت روحـه إلى حيـث الحيـاة أقـل عتـما .. و أكـثر اتسـاعا.. لكنـه رحـل دون أنـين ..
و لازال هذا الذي خلفي يئن .. و كأنه يئن منذ سنين ...
أشيح بوجهي عن مشهد الموت الذي لا أراه ..
التفـت إلى جانبـي الأيـسر .. و أرى الآخـر في قوقعتـه يمـارس الحلـم غافيـا .. يسـيل لعابـه الـذي لا أبـصره في هـذا العتـم أيضـا» .. لكنـي أعلـم أنـه يسـيل الآن عـلى ذقنـه .. منهـك في نومـه منـذ أن غفـا و أنـا أحـكي لـه قصـص عشـقنا السريـة و أسـتحلفه ألا يرويهـا للغربـاء في عـالم المـوتى .. أروي لـه حكايـة مـا قبـل المـوت و أراه يـسرق غفـوتي و يتركنـي أقطـف أهـدابي أمنيـة .. أمنيـة .. حتـى أقحـل جفنـاي و لم تنتهـي لعبـة التمنـي بعـد .. يغيظنـي منظـره و هـو يسـتمتع بغفـوتي المسروقـة و أنـا أقـف متيقظـا مـن التعـب .. فأشـيح بوجهـي عنـه أيضـا ..
لتقابل نظراتي الحائط المحكوم مؤبدا في زنزانة الجحيم هذه ..
فأشـعر بـه يقـترب أكـثر .. يلقـي بحمولـة ذكرياتـه عـلى روحـي .. و يتقـيء المـآسي التـي اختزنتهـا رطوبتـه في وجهـي .. مقبـلا إلي ليحضننـي و يلقـي إلي بعـبء المشـاهد التـي مـرت أمامـه منـذ تاريـخ القمـع الأسـود .. و ألـوان العـذاب..
فـأراني أسـقط متهالـكا إلى أرضي الملطخـة بدمـاء الأجسـاد التـي قضـت في هـذه البقعـة منـذ أعـوام و أعـوام ..

أغـوص في دمائهـم الصامتـة و أحتضـن عظامـي المرهقـة و أسـند رأسي عـلى كتـف المـوت الـذي لا يكـف عـن المـوت .. خلفـي ..
فجـأة يخـترق الضـوء تفاصيـل المـكان .. أبـصر فنجـان قهـوة قـد تسـللت رائحتـه عـبر العفـن المتكـدس في صـدري .. و ياسـمينة بيضـاء غفـت بغنـج عـلى طـرف صينيـة نحاسـية ..
أسـمع ضحكتـك تختـال فـوق ذرات الهـواء المعشـق برائحـة الـبن و الياسـمين .. تصـل إلى أذني كخريـر بـردى .. و كتدفـق مـاء الـورد مـن نافـورة «قـصر العظـم» ..
أركـض ببـصري خلـف الضحكـة .. خلـف موجـات الصـوت .. ألمـح طـرف فسـتانك التركـواز ألاحقـه لأمسـك طيفـك قبـل أن يهـوي تحـت أنقـاض السـقف المتهالـك في حارتنـا .. قبـل أن ينقـض عـلى تفاصيـل حسـنك قذيفـة غـدر .. فيبعـثر الفـرح المخلـوق لأجـلي .. لكـن أطـرافي المتهالكـة تضحـك لغبـائي .. و فسـتانك يباغتنـي فيختفـي في العتـم .. و مثلـه فنجـان قهـوتي الـذي لم أشربـه قـط ..
يعـود الأنـين ليصيـح في أذني مثـل نحيـب الزمـن المنقـضي في تـكات سـاعة الأرض .. وأسـتفيق مـن رؤيتـي المنقوصـة و التـي مـا اكتلمـت يومـا .
أفتـح عينـي .. ليغزوهـما ذاك الضـوء الـذي عـاد ليتراقـص أمامهـما .. ينطفـيء فتختفـي ملامـح القبـح التـي اكتـظ بهـا المـكان حولي .. و يسـطع تـارة لأرى المـوت و قـد تمـدد بـكل أريحيـة فـوق أجسـاد الأحيـاء منـا .. قبـل المـوتى ..
أمـد لسـاني ألعـق الهـواء المحمـل بالقهـر .. أثبـت أصابعـي في وجـه الضـوء المتقطـع .. أفـرك عينـي.. أضغـط عـلى أرنبـة أنفـي.. أمسـح عـلى صفحـة وجهـي .. و مـن ثـم أمـد أصبعـي .. أفقـأ عينـي .. أصفـع وجهـي حتـى يتناثـر الـدم أمامـي تحـت الضـوء المتراقـص لمـوتي ...
أعض لساني غيظا و قهرا .. و أبصق كريات دمي المجنونة ...
ألقـي رأسي المثقـل بروائـح العفونـة و صـور أوديـة الويـل و أشـجار الزقـوم ..

أغرز إظفرا في جدار روحي .. و أنقش لغيابك رسالة..
و قبل أن أرسم توقيعي في آخرها ..
أرى الحائط المقابل للموت يركض إلي .. يلتصق بمسامي المتقيحة .. لكني أعود لأبصره بنظري المتلاشي لم يتحرك و لايزال يرزح تحت ثقل الأعناق المعلقة على كاهله ..
ربما أنا الذي ركضت إليه ..
فها أنا أرتعد تحت ثقله .. أشعر به و كأنه ألقى جبينه الذي ينز دما .. ألقاه فوق قلبي فكتم ضجيجه المبرح ..فأحس براحة لذيذة بدأت تتسلل أوصابي .. تتغلغل بي...
أشعر بخفة في جسدي ..
و ألمح طرف ثوبك التركواز راكضا إلي .. أسمع ضحكتك بوضوح هذه المرة ..
و أراك تقتربين مني تدوسين فوق الأرض الملطخة بالدم فينبت «بردى» في كل خطوة ..
تحملين صينية نحاسية غفت على طرفها بغنج ياسمينة ..
و فنجان قهوتي يبتسم لي وسطها ...
و أنا على كرسي تحت شجرة مثقلة بزهر الرمان أجلس ..
و لا موت يئن حولي ..

عيدان السماسم

و كآخـر الناجـين مـن مجـزرة سـفكت دم البشريـة عـلى نصـل سـكين لم تـكل أبـدا ..
كنـت أتـأنى بأنفـاسي خشـية إمـلاق الكـرة الارضيـة مـن الهـواء.. أستنشـق آخـر رمـق مـن الـروح عـلى مهـل .. و أجـذب الحيـاة مـن أطـراف ثوبهـا و أسـتبقيها بضعـا مـن الوقـت ...
كآخر الأجساد الباقية فوق كوكب اندثرت ملامح ساكنيه ..
نهضت أمر أجسادهم جسدا جسدا ..
ألتقـط مـن صدورهـم آخـر الأنفـاس قبـل ان تلفـظ .. و أحشـو بهـا رئتـي ..
فـما فـارق التوقيـت بالنسـبة لهـم الا مزيـدا مـن العـذاب و كثـيرا مـن التأخـير قبـل الوصـول إلى المحطـة الأخـيرة ...
فتشـت وجوههـم أجمـع .. دسسـت بقايـا زفراتهـم في صـدري.. و ركضـت ..
لأخبر ماتبقى من الخلق ...
بما كان قبل اندلاع الموت بلحظات ...
- حـين لفـظ السـجان اسـمي .. انتفـض جسـدي برعشـة مـا كان لي عليهـا مـن سـيطرة .. رمقـت وجـوه الأخريـات كـن يودعننـي سرا و كنـت أشـفق عـلى عذابهـن المسـتمر مـن بعـدي ...
أخذت استذكر جواب الأسئلة ..
الله ربي .. محمد نبي .. الإسلام ديني ...
و أردد الشـهادتين في سري .. حتـى لا أسـهو في لحظـة انشـغالي بالمـوت عـن ذكرهـا ..
صمـت لحظـة و أنـا أسـاق بسلسـلة لامرئيـة مـن الحديـد غليظـة كجسـد

ثعبان يلف رقبتي و يجرني خلف سجاني .. لا أحد يحس ثقلها إلا عنقي المنكسر انحناء
و لا أحد يبصرها إلاي ...
لكن هل إن مت الآن تحت سطوة العذاب.. هل سيكون موتي شهادة .. !!
هل سأنسى لفظ الشهادة في لحظة موتي ..!!
هل سأسأل و أنا الشهيدة عن ديني و نبي .. و أنا التي يشهد إله الأكوان على حجم الجحيم المصبوب فوق جسدي في حياتي الأولى ...
هززت رأسي لأطرد هذه الأفكار عني .. و رحت أردد الشهادتين بسري دون توقف .. و سرت خلف سجاني ..
خطوتان خلف السجان ..
نظري يزوغ .. أقف ..
أتنفس .. أخطو ..
تعلق نظراتي بوجه إحداهن .. كانت أكثرهن احتفاظا بملامحها البشرية .. ترمقني بعينيها اللامعتين وسط العتم كقطة ..
ثم تسدل فجأة جفنيها عني و كأنها تحرضني على السير قبل أن تجرني يد السجان من شعري اذا ما تلكعت أكثر ...
مشيت خطوتين محاولة أن أستمد توازني من جاذبية الأرض التي كانت تدور حولي .. و كأني مركز الكون و كل مافيه يدور بي و حولي ..
وصلت الباب المتهالك .. أسندت كفي عليه ..
وقفت أستجمع قواي .. هذا الجسد عبء ثقيل ..
فقدت علاقتي به منذ زمن .. و لازالت كومة اللحم التي ألبسها ترهقني ..
كل العذاب الذي مر فوق أوصالي جعل مرارة اعتقالي في هذا الجسد أشد وأعظم من ألم الاعتقال في هذه السراديب ..
ازدرت ريقي .. رفعت رأسي في محاولة أخيرة لاستكمال خطوي خارج الزنزانة ...

خرجت أخيرا .. و أوصد الباب من خلفي ..
شعرت أني لن أرجع .. كان صوتا داخلي يخبرني أني على موعد مع الموت هذه المرة .. سأكون حرة أخيرا من حمل جسدي ...
كانت هذه الفكرة تكفي لأن تمنحني القوة بأن أكمل سيري قبل أن تجذبني يد المخلوق الذي يمشي أمامي في دهاليز لا تنتهي ..
لم يلتفت الي حتى .. كأن صوت خطواتي كان مؤشرا كافيا على وجودي خلفه ..
كنت أضحك بصمت .. حريتي قاب قوسين ... أتهيأ مرة أخرى لاستقبالي الموت بما يليق ..
«الله ربي .. محمد نبي .. الاسلام ديني ..»
أرهقتني الاستجوابات في هذا المعتقل .. هل سيكون الأمر مختلفا في العالم الآخر .. لابد أن يكون أكثر رأفة ..
فهنا أنا بين الشياطين .. و هناك ملائكة .. في النهاية من هناك هم ملائكة ...
«الله ربي .. محمد نبي .. الاسلا.....»
قطع تسلسل الأجوبة في رأسي صوت السجان .. كنت أتبعه و أنا أركز نظري على حذائه العسكري الذي في لحظة ما أذكر أني أبصرته يضحك مني ...
كم نال من جسدي موطئا له ...
حينما نهرني السجان لأصحو من شرودي .. كنا قد وصلنا باب مكتب المحقق .. رفعت رأسي أستطلع المكان .. هنا إذا سأخلع جسدي ... المكان لائق تماما بحدث جلل كهذا ....
دخلت بعد أن نعرني بقبضته ذاك البشري الذي ما كف حذاؤه عن الضحك في وجهي ....
رمقت الحذاء بنظرة غل .. و مضيت أردد في سري ..
«الله ربي .. محمد نبي .. الاسلام ديني ..»
الشمس ألقت أشعتها على عيني المتماهيتين مع الظلام تماما مثل

سـائر أرجـاء جسـدي الـذي تماهـى مـع الظلـم ..
حاولت أن أرصد معالم المكان من حولي ببصر شبه متلاش ..
طاولـة عريضـة تنعكـس أشـعة الشـمس عـلى خشـبها اللامـع و المسـقول بعنايـة .. خلفهـا يتسـلق وجـه رجـل تبينـت ملامحـه بعـد فـترة مـن اعتيـادي للضـوء الكثـير ..
كان يبـدو كانـه قـزم يحـاول أن يرتفـع فـوق الطاولـة الضخمـة بجسـده الضئيـل .. يسـند كوعيـه عليهـا و تخيلـت أني رأيتـه يأرجـح قدميـه تحتهـا بمسـافة الفـراغ بينـه و بـين الأرض ..
كان عجـوزا بشـعيرات قصـيرة تلـوح في نهايـة صلعتـه .. و تنسـدل أكـثر كثافـة في محيـط رأسـه ..
عينـاه تحفـران صـدري بتركيـز كبـير .. هـذا الجسـد اللعـين جسـدي .. أتـوق لأن أهبـه للنـار تلتهمـه و انتهـي مـن وزره ..
بعـد لحظـات مـن الصمـت التـام .. و انشـغالي باسـتيعاب كميـة الضـوء المفروضـة عـلى قرنيتـي بعـد عصـور الظـلام ..
و انهماك العجوز المقابل لوجودي بتفحص مفاتن جسدي البغيض ..
جاء صوته ملائما لضآلة جسمه .. «رح نطلعك من هون.. اليوم»
لفـظ جملتـه و شـعرت للحظـة بـدوار شـديد يتملكنـي .. و كأن سـمعي أيضـا لم يسـتوعب هـذا الصـوت الكثـير .. أو أن إدراكي أخفـق بالإلمـام بمـا نطقـه ذاك الكائـن .. مـاذا يعنـي .. ألـن أمـوت الآن !!
كيف قرروا أن يهبوني المزيد من الحياة التي لا طاقة لي بها.
كيف ذلك !!
تزاحمـت الأفـكار في رأسي في تلـك اللحظـة و راح جسـدي يترنـح تحـت وطـأة الـدوار ..
ضوء كثير .. صوت .. كثير .. كلمات لم أستطع استيعابه
و عينـاه تنقبـان في نحـولي الضـارب في جسـمي عـن هضبـة تسـتريح نظراتـه عليهـا طويـلا ..
كدت أسقط .. مجددا .. زفرت الهواء بعيدا خارج رئتي مطولا ..

و ثبت نظري على الأرض محاولة استعادة توازني ..
في تلـك الأثنـاء .. كان السـجان قـد صرف خـارج المكتـب بإشـارة مـن الضابـط ...
مـا إن رفعـت بـصري .. و أنـا أقـف في ذات النقطـة مـذ دخـولي ذلـك المـكان .. حتـى وجـدت الضابـط يخطـو مقتربـا منـي ..
لم ارتعـش .. لم احـاول الابتعـاد قيـد أنملـة مـن مـكاني .. جامـدة مثـل الحائـط تمامـا .. فبعـد كل هـذه الأشـهر عـلى أرض الجحيـم .. كنـت قـد أدركـت أنـه لا مفـر .. و لا منـاص مـن لحظـة المـوت المكـرر ..
لا هـرب مـن افـتراسي .. طريـدة الشـهوات أنـا .. و الأدغـال بعيـدة عـن أقدامـي .. و الأنيـاب مغـروزة مغـروزة في لحمـي لا محالـة ..
و انا في حالة الدوار المستمر .. ما كنت قادرة على الفرار .. كيف ؟
و أين !
الجـدران لهـم .. و الأرض لهـم .. و الأبـواب ترقـب نـزفي كل مـرة و هـي تشـهق رغبتهـا بابتلاعـي و أقفالهـا تتـدلى سـاخرة مـن خنوعـي ..
«أكيـد مـا بتطلعـي .. إلا بتوديعـة .. لازم أقـوم أنـا شـخصيا بالواجـب هالمـرة .. «
كان الضابـط قـد التصـق تمامـا بجسـدي رأسـه يـضرب بكتفـي .. أنفاسـه تلفـح عنقـي ..
و كنـت مضطـرة لرفـع رأسي و تعليـق نظـري بالثريـا المتدليـة مـن السـقف ..فوقـي .. هربـا مـن النظـر في وجهـه الـذي كان بمسـتوى صـدري تمامـا .. كنـت اطـول منـه بشـبر عـلى الأقـل ..
كان ذلـك مـن دواعـي فرحـه ليفـوز بالابحـار في خبايـا صـدري الـذي كان يعلـو و يهبـط في سـباق خلـف أنفـاسي الهاربـة ...
يدنـو أكـثر .. انـا لا اتحـرك .. يلتصـق .. ينتفـض جسـدي في حركـة لا ارادية .. القـزم يتسـلقني هـذه المرة ..
الـدوار يغلبنـي .. اسـقط أرضـا لكننـي واعيـة تمامـا لـكل مـا يحصـل .. القـيء في حلقـي .. الجحيـم في جسـدي .. المسـخ يفترسـني ..

أنا على الأرض .. جسدي متمدد تماما في حالة لا احساس كاملة ...
مصلوبة للمرة الألف .. و لا أموت .. و في صدري يتردد صوتي المخنوق .. لا زلت استذكر أجوبتي .. طمعا في لحظة موت قريبة ..او ربما هربا من لحظة الموت تلك «الله ربي.. محمد نبيي .. الاسلام ديني ..»
لم يستغرق الامر أكثر من دقائق .. بعدها دقائق أخرى .. ألقوني خلالها خارج السراديب المتكاثرة ..
لم أمت .. أنا وجها لوجه مع الحياه ..
في ساحة عامة .. خارجة لتوي من الجحيم ..
كل الطرق مبهمة .. و الضوء أكثر من كثير ..الأصوات تتدافع إلى أذني ..
الوجوه ترصد ملامحي الفارغة من الحياه ..
بحثت عن زاوية انزويت بها ..
تماما كما أنووي الآن بحملي الثقيل .. لم يختلف شيء .. الضجيج لايزال مستمر حولي .. و الضوء لازال كثير ..
و لازلت منزوية في صمتي وأنفاس الكثيرين تحتشد في أنفي فجأه .. فأكاد أختنق ..
الذي تغير فقط هو انني لست أجلس في ساحة عامة .. أنا في مركز لايواء العامة .. مدرسة احالتها الحرب إلى منزل كبير .. دار أيتام .. ومأوى عجزة و مسكن للثكالى .. أو ملجأ للهاربين من الحياة مثلي .. بعد خروجي من المعتقل .. لم أستطع أن أسافر لأهلي ..
أرشدتني سيدة في ذلك اليوم بعد أن راعها منظري و أنا احتضن نفسي و اغفو على كتف الجدار في الشارع .. ارشدتني لهذا المركز .. كنت انوي أن أبيت فيه يوما او ربما يومان ريثما أتمكن من ايجاد طريقة للعودة إلى قريتي ...
لكنني لازلت هنا .. مذ تسعة اشهر و أنا ارتكز في هذه الزاوية أسند رأسي إلى الحائط .. و أتابع الحياة من حولي و لا أموت ولا أحيا ...
في البدء كانت صعوبة الوصول للقرية بسبب الاشتباكات على طريقها

هـي ماجعلتنـي أبيـت أكـثر مـن شـهر داخـل جـدران هـذا المـكان .. لكـن فيـما بعـد ..

قـررت أن أمـوت هنـا .. أن ابحـث عـن مـوتي في هـذا المـكان .. و كنـت مـصرة أني سـألقاه .. حجـم بطنـي المتضاعـف جعـل طريـق العـودة مسـدود تمامـا ..

تسعة أشهر و انا اتضاءل و بطني يكبر ..

نهشـتني ألسـنة النسـاء مـن حـولي أسـئلة في البـدء ..حتـى امتهنـت الكـذب .. و اختلقـت القصـص الموجعـة .. لأثبـت نسـب هـذا الجنـين المتنامـي في أحشـائي ..أخبرتهـم أن والـده استشـهد في القصـف .. و ان ذويـه تبعـثروا في المخيـمات و مفـارق اللجـوء ..

و احتفظت لنفسي بالحقيقة الفاضحة ...

أنـا أنثـى تحمـل في أحشـائها طفـل الشـيطان .. يمتـص دمـي .. يـسرق أوكسـجين الحيـاة مـن صـدري .. و أنـا أخطـو إلى المـوت و أقـترب ..

و لازلـت ألهـج بالدعـاء .. و اكـرر جـوابي لـكل الأسـئلة « اللـه ربي .. محمـد نبيـي .. الاسـلام دينـي .. «

أشعر بآلامي تتزايد بسرعة غريبة .. نبضي يهرب مني ..

و جنين الشيطان يمزق أحشائي ..

صوتي يستغيث أخيرا .. أصرخ و قدبدأ العرق يقطر من جبيني ...

و الموت أراه يحملق بي من بعيد ..

تهافتت أيدي النساء من حولي على جسدي ..

و رحـن يهيـئن كل الأمـور اللازمـة لاسـتقبال مولـود الشـيطان الـذي حـان ميعـاد خروجـه مـن جسـدي ...

هـا أنـا أصرخ تمامـا مثـل صراخـي لحظـة اغتصـابي الاولى .. و انتهـاك عذريـة روحـي ..

ذات الصرخـة التـي تكـررت حتـى ماتـت مـن شـدة الألم و تكـرار العـذاب ..

هـا أنـا أصرخ الآن ذات الصرخـة التـي لفظتهـا لحظـة قفـزي مـن أعـلى

الـدرج لألقـي بنفـسي عـلى درجاتـه متكـورة في محاولـة لاجهـاض العـار المتنامـي في رحمـي ...
هـا أنـا أصرخ .. و صـوت في جـوفي يعيـد تـلاوة الأجوبـة دون انقطـاع .. « اللـه ربي .. محمـد نبيـي ..الاسـلام دينـي « ..
و الألم يسـتبيح حـواسي اجمـع .. ألتقـط أنفـاسي .. ياليتنـي مـت قبـل هـذا .. ياليتنـي مـت قبـل اجتـماع المـوت الكثـير فـوق هذا الجسـد الـذي لازال يحيـا و ببعـث مـن جوفـه حيـاة ..
اسـمع احداهـن وسـط صخـب الألم و هـي تقـول .. «يـلي خلـف مـا مـات .. هـاد ابـن الشـهيد .. اللـه بعتـو ليحمـل اسـمو «
صوتهـا يصـل لاذني فيزيـد مواجـع المخـاض بي .. كـدت أصرخ لأخبرهـا ... إنـه ابـن الشـيطان ... والـده مسـخ قـدر لي أن أحمـل مضغتـه في رحمـي ... لأنجـب للكـون مسـخا جديـدا ...
الهـواء يندثـر ... أحـاول التمسـك بأنفـاسي .. لا أجدهـا .. المـوت لازال يحـدق بي .. يقـترب .. اصواتهـن حـولي تصـدر التعليـمات . انـزف .. أصرخ حتـى تتجـرح حنجـرتي ... آه بحجـم القهـر و الوجـع أطلقهـا يطـل رأس الشـيطان أخـيرا ...
ترفعـه المـرأة التـي قابلـت جسـدي .. يـداه تقطـران مـن دمـي تزغـرد فرحـا .. أنجبـت ذكـرا ..
تقربـه مـن عينـي أبـصر وجـه الضابـط يطـل عـلي في وجـه هـذا الجنـين الخـارج مـن رحمـي لتـوه .. اشـعر بأنفـاس الضابـط و هـي تنخـر مسـامي ... وكأننـي أعيـش تلـك اللحظـة مجـددا ..
يدسـون الطفـل في ذراعـي .. ليرضـع مـن صـدري .. مثلـما كـبر في رحمـي و قاسـمني أكلي و شربي و دمـي .. و افـترش جسـدي ...

يدنو بفيه ليلتقم ثديي ..
ينحجب الهواء عن رئتيي .. يقترب الموت اكثر .. يباعد بين الطفل و بيني يغفو الموت على زندي بهدوء ..
الصوت في جوفي يردد .. «الله ربي .. محمد نبيي .. الاسلام ديني»
يعانقني الموت عناقا طويلا ... ها أنا أغفو كما لم أغف من قبل ..

على ذمة انتظار

صوت المنبه يباغت صمت الخلايا في جسدي قبل أن يعبث بسكون المكان من حولي ..

لم أشعر بمرور الوقت .. و انا أجلس على ذات الكرسي في ذات الزاوية .. منذ ساعات طويلة ..

لم أنهض فيها إلا مرات حينما غلبني الغثيان فلهثت إلى الحمام أتقيأ ألمي المجتمع في حلقي ..

الشمس بدأت تتحرش بنافذتي و أجفاني تجابه شعاعها بنصف إغماضة ..

و لازلت أقهر النعاس بكوب قهوة مركز .. أفرغه في حلقي ليصطف فارغا إلى جوار الأكواب الستة التي أمطرت فيها جوفي طيلة الليل ...

لم أغف حتى لأجزاء من الثانية .. و لن ..

أقسمت قبل أن أبدأ هذه الليلة الطويلة أني لن أنم إلا بعد أن أتم مهمة أجلتها كثيرا ..

في بداية الليل و ما إن أرخت العتمة ضفائرها على كتف السماء .. كنت قد نحرت خوفي على عتبة الجنون .. و دفنت جبني تحت نعال الوجع ..

قررت أن أذهب بهذا الوجع حتى آخره .. أن أكتفي بألم صاعق ينزل بروحي مرة واحدة كضربة حسام لا تخطيء ..

فقد اكتفيت من احتضاري الطويل الذي مزقني إلى ألف روح لا تعرف الموت و لا تفقه الحياة ..

جلست قبالة الكمبيوتر .. صورتك على الطاولة في مكانها تماما .. لم تنحرف من مكانها هذا منذ عامين .. حتى أنني استنسخت أخرى لأضمها إلي حينما ترديني أزمة شوق و يستفحل بي الحنين ..

كان صوتك يمر دهاليز روحي في لحظة ذكرى .. فأشعر أني أكثر خوفا من أن أقدم على هذه الخطوة .. و يعود تعبي ليصفع وجه التردد .. قد تكون شدة ضعفنا أحيانا هي ذاتها نقطة قوتنا و جرأتنا ..

و قد كان ضعفي و إرهاقي و تعبي كلها جيوش تجرني إلى أرض معركة أراني خاسرة فيها أيا كانت النتائج ..

لكنها معركة حاسمة .. أجلتها آلاف المرات .. و تخاذلت عن خوضها كثيرا ..

و أخيرا .. دخلت ميدانها بلا رمح و لا سيف .. ولا حتى رصاصة أطلقها في وجه عدونا المشترك ..

كنت هنا على هذا الكرسي .. بظهر أحناه غيابك و روح تكاد تبلى .. و عينين ترقبان الوجوه بأسى .. أكاد أركض فوق الصور بسرعة هاربة من قبح المشهد .. لكنني بررت لنفسي تقبل هذي المشاهد و فرضت على روحي الرضا بكل هذا التعب ..

لأذوق جزءا ضئيلا من طوفان المرار الذي ابتلعك .. و لأن غايتي بررت وسيلتي ... كان لابد لي أن أتقبل الدماء التي رشقت بقعا على شاشة الكمبيوتر في البدء .. و من ثم بدأت تسيل لتستقر بركا» عميقة في عيني ...

أقلب الصور .. ألمح وجها يشبهك .. أكبر الصورة .. أدقق في ملامحه المتبقية بعد أن فقأوا عينيه .. يغلبني الغثيان .. و تغرقني الدموع .. فتغيب الرؤية .. و أكاد أنهار ..

أصفعني لأصحو.. أغالب وجعي و أعض على الجرح بقسوة.. أفرك عيني بأصابع متعرقة ..

كل مساماتي تنتحب معي .. و روحي منقسمة على نفسها ..

فأراني أنا القوية و أنا الضعيفة ..

أنا الخائفة و أنا الجسورة ..

كان لا بد أن أحسم المعركة .. مذ سربت هذه الصور لضحايا معتقلات «الوطن».. و أنا في دوامة أنهكت قواي.. و كان لابد أن أنهي هذه

المعانـاة إذا مـا كان هنـاك سـبيل لإنهائهـا ..
عامـان مـرا و أنـت تعانـق الغيـاب و ينهـش العتـم المسـدل بيننـا ملامحك ..
عامـان و خاتـم العشـق لازال مدسـوس في بنـصري .. و يمنـاي تقسـم ألـف يمـين ألا يفـارق مسـامها ..
أصحـو و في صـدري أسراب أشـواق و فيـض أمـل .. و يبـدأ النهـار يأكلنـي مـن روحـي .. كلـما شـارف عـلى الرحيـل لتتكاثـر أيـام غيابـك .. و بعـضي ينقـص مـن بعـضي .. حتـى كـدت أتـلاشى ..
مـا إن يدنـو الليـل حتـى تفترسـني كل وحـوش القهـر .. و تتركنـي للفجـر جثـة داميـة ..
لكن هذا الفجر الذي يطل اليوم أراه فجرا غريبا ..
و أنـا لازلـت أقلـب وجـوه المـوتى .. تتقاتـل في جـوفي أمنيتـان و يدمينـي تشـتتي مابـين نقيضـين ..
شيء ما بي يريد أن يجدك هنا بين الجثامين المرقمة ..
فتنتهـي عـدة الحـزن التـي أنهكـت روحـي .. و أملـك يقينـا واحـدا و إن كان موجعـا لكنـه ينهـي عامـين مـن وخـز الهواجـس و النـوم عـلى نصـل الكوابيـس ..
بينـما شيء آخـر أكـبر و أصـدق و أوفى يركـض بي فـوق الوجـوه مثـل كفيـف خشـية أن تكـون هنـا .. و أجـدك .. فأجهـض جنـين الأمـل الـذي بـذره غيابـك في روحـي .. و أشـيع انتظـاري لقـبر بـلا شـاهدة ..
بضـع صـور أخـيرة .. و تنتهـي رحلـة العنـاء الطويلـة .. أتراهـا صورتـك تكـون الأخـيرة !! خـوف يصفـع طـرف ابتسـامة ميتـة كادت تتسـلل إلى ثغـري كلـما قاربـت مـن النهايـة ..
يمـر وجـه أحدهـم نحيـلا ضئيـلا .. متـلاشي التعابـير .. بملامـح ذابلـة تمامـا .. أمـد أنامـلي بغـير وعـي أمسـح جبينـه الـذي ارتسـمت فوقـه الأرقـام .. رقـم تسلسـلي للمـوت !!! كـم هـم دقيقـون في حسـاباتهم .. سـجلاتهم تتكاثـر و أحباؤنـا أرقـام ...!!

أحـاول أن أمحـي الأرقـام عـن جبهتـه علـه ينهـض مـن جديـد و ينسـاه المـوت بضـع عمـر ...

تضحـك الشاشـة مـن خيبتـي .. و أصحـو مـن ذهـولي .. لانتقـل إلى الرقـم التـالي .. و ميـت آخـر بحكايـة أخـرى طواهـا في جـوف قلبـه و التـف عـلى وجعـه ليمـوت بهـدوء و يختـم أحدهـم عـلى جبهتـه رقـما جديـدا .. الصـورة الأخـيرة .. تأملتهـا طويـلا .. و الذهـول يغـزوني .. ثـم يتلـوه وابـل مـن الدمـع و الضحـكات ...

أغلـق الكمبيوتـر .. أرمـي ببـصري إلى عينيـك في الـبرواز .. أضحـك .. أقهقـه ...

أتحسس الخاتم في يمناي ..

لازلـت قـادرا عـلى احتـمال المزيـد مـن الألم .. لتمنحنـي سـماءا» مـن الأمـل ...

لم تمت لأن في حياتي عمر لازال ينتظرك ...

أنهـض عـن كرسـيي.. أعانـق انتظـاري الـذي أنهكـه قلـق الأمـس.. أحضنـه حتـى يرتـدي روحـي مـن جديـد ...

و أكتم صوتا في داخلي يهمس بخبث ..

(ربمـا نـسي أحدهـم أن يلتقـط صـورة لـك .. بعدمـا حفـروا أرقامهـم عـلى جبهتـك .. !!!) ..

-في سجلات القهر
تحت خانة المغامرين ..
اكتبوهم أقوام الحرب و البحر
راهنوا على الحياة بقشة الغريق ..
و تكدسوا حمرلا بثقل وطن
على كف القدر ..
تأرجحت حياتهم ..
خطفت بلمح البصر
كتم الموج أنفاس الحلم
و خلدوا لنوم عميق ..

أصحاب الكهف يختنقون

هزة خفيفة .. و توقفت الشاحنة ..
كانت الساعة الواحدة تماما .. و كنت أعرف رغم انحجاب الأفق أنها الواحدة المظلمة..الواحدة بعد منتصف العذاب.. الواحدة ليلا على وجه التحديد ..
كنا قد أمضينا ما يقارب الساعتين و الشاحنة تسير بنا دون توقف .. ذلك بعد وقفة سريعة فتح فيها السائق باب القفص الذي أوينا إليه كحيوانات هاربة من الانقراض .. منحنا فرصة التهام الهواء بنهم ... تنفسنا .. ملأ كل منا رئتيه بما قدر له من الأوكسجين قبل أن يسد باب الصندوق في وجهنا من جديد ..
ساعتان و الباب لازال مغلقا ..
حتى بدأت الأنفاس تلح في طلب الهواء .. فما إن أحسسنا بجسد الشاحنة يتوقف عن الاهتزاز .. استبشرت وجوهنا ..
تنحنح (باسم) الجالس إلى يميني .. و قال بلكنته الحمصية .. و بنبرة العارف لكل شيء كعادته .. «أكيد وصلنا .. الحمدلله عالسلامة يا شباب... الحمدلله .. و أخيرا .. «
و شرع يهز كتف زوجته المتكومة على نفسها إلى جانبه في زاوية المستطيل الذي كان يعتصرنا ..
أما البقية فظلوا صامتين و كأنهم يخشون فتح أفواههم فتنفلت منهم آخر ذرات الأوكسجين التي خبأوها ..
مرت دقائق و الكل في حالة تأهب .. الشاحنة لا تزال ثابتة لكن الباب لم يفتح ..
و بدأ باسم يتنبأ بما قد يكون سبب تأخر فتحهم للباب ..
و يقترح مبررات و أسباب كأنه يسعى لخلق اي نوع من الطمأنينة

في الجـو المشـحون بالذعـر و الإرهـاق ..
بعـد رحلـة البحـر التـي كنـا فيهـا مـن المحظوظـين القلائـل الذيـن وصلـوا الـبر قبـل أن يفتـح المـوج فمـه ليلتهمهـم..
كنـا خمسـة و خمسـون جسـد مدسوسـين في الصنـدوق الخلفـي لشـاحنة ... هـذا الصنـدوق الـذي كانـت مهمتـه الطبيعيـة نقـل العصائـر المعلبـة و توزيعهـا .. لكنـه اكتـظ اليـوم بأجسـادنا و وجوهنـا الملفوحـة بالحـرب و البحـر ...
اعتـصر أجسـادنا المكدسـة فيـه .. و جـال فينـا حـدودا كانـت مغلقـة في وجوهنـا كبـشر طبيعـين .. فاختبأنـا هاهنـا .. تعتـق القهـر في قلوبنـا .. فتخمـر نبيـذ الدمـع و الـدم .. تكومنـا في صنـدوق مظلـم علنـا نصـل ضفـاف الحلـم الأوروبي ..
ركبنـا البحـر و هنـاك كنـا قـد تكدسـنا أيضـا .. و راقصنـا المـوج رقصـة المـوت و الحيـاة ... و صرخنـا و نحنـا .. و تفطـرت أفئدتنـا ألمـا و هلعـا .. تقيحـت مسـامنا تمامـا مثـل جـرح الوطـن المفتـوح في وجـه القهـر .. حين سقطنا على كف البر ناجين .. ضمنا صندوق العصائر هذا ...
خمـس و خمسـون روح تجمعـت هنـا في جـوف الظـلام .. أغلبنـا رجـال إن صـح التعبـير .. حملنـا مـا تبقـى لنـا مـن هـذا الاسـم في زمـن أتقـن خـصي الرجولـة فينـا ...
أربـع نسـوة .. و رضيـع بعمـر أشـهر كان يغفـو قليـلا ثـم يصحـو ليضـج المـكان بصـوت بكائـه الـذي صـدع رؤوسـنا و نخـر ضمـير الانسـانية المتهالـك ..
قبالتـي تمامـا كان طفـلان يتمـددان فـوق أفخـاذ والديهـما في غفـوة خاطفـة سرقهـا جسـداهما المنهـكان ..
إذا» وقفـت الشـاحنة .. الدقائـق تكاثـرت و السـكون لازال يلـف أوصـاب الصنـدوق .. و نحـن لازلنـا محشـورين هنـا ...
لم يفتـح البـاب .. لم نسـمع صوتـا يعـبر إلينـا حتـى .. ظللنـا ملتحفـين صمتنـا نحـن أيضـا خشـية أن نكـون قـرب حاجـز أو معـبر حـدودي مـا ...

فنحـن محمولـون عـلى كـف القـدر تمـضي بنـا هـذه الشـاحنة بينـما نغمـض أعيننـا و نـولي أمرنـا لسـائق عرفنـاه قبـل يـوم واحـد فقـط ... الضيـق هنـا حيـث نحـن ذكـرني بمعتقـلات الوطـن .. و اختنـاق الانسـانية هنـاك .. لكنهـم لا زالـوا يملكـون الاوكسـجين في معتقلاتهـم .. أمـا نحـن هنـا .. ترتـص أربعـة جـدران مـن الحديـد حولنـا و سـقف يمنـع عنـا أي أنفـاس جديـدة ..

فنكتفـي باستنشـاق أنفـاس بعضنـا البعـض .. ريثـما يشـق رمسـنا فتتلقف أنوفنـا الهـواء بلهفـة ..

حاولـت أن أتحقـق مـن سـاعة يـدي .. لأتيقـن مـن الزمـن الـذي مـر و هـذه الشـاحنة ثابتـة في مكانهـا ... فركـت عينـي بدهشـة و قربـت البيـل الصغـير الـذي بيـدي أكـثر مـن السـاعة .. لاتـزال السـاعة الواحـدة .. تمامـا !!

هل توقفت عقارب ساعتي أم أن الزمن تجمد ..

(باسـم) بـدأ يـضرب أرض الصنـدوق بقدمـه .. ويـصرخ في نوبـة غضـب التهمـت صـبره « أي و بعديـن ... افتحـوا البـاب ماضـل هـوا .. !!»

الرضيـع ذعـر مـن صراخ باسـم المفاجـيء فبـدأ سـيمفونية صراخـه هـو أيضـا ...

و بدأ جسدي يتعرق أكثر من قبل .. و المكان بدا لي أكثر ضيقا ...

الحشـد المنـدس معـي كلهـم بـدأوا يتململـون .. نحـن الشـعب المنـدس عـلى مـتن شـاحنة العصائـر .. تركنـا الوطـن لغربتـه .. تركنـا الوطـن بعـد اكتشـفوا اندساسـنا التاريخـي هنـاك .. و اجتمعنـا لننـدس معـا في صندوق يكتـم أنفاسـنا شـيئا فـشيء ..

نحـن الهاربـون مـن هواء تعشـق برائحـة البـارود و الرصـاص .. كأن الأرض تعاقبنـا هنـا فتحـرم عـلى أجسـادنا هواءها ...

الوقـت أطـول مـن أن يحتمـل.. و أصواتنـا بـدأت تتـمازج في موجـة مـن الـصراخ الهسـتيري ..

و جسـدي يهتـز .. أم تراهـا الشـاحنة عـادت لتهتـز عابـرة بنـا حـدود

الأرض !!

جسدي يرتجف.. الصراخ يتكاثف.. وحدها الأنفاس تتلاشى..

الصندوق يضيق بنا .. لكن صدري أكثر ضيقا ..

باسم يضرب أرض الشاحنة برجله .. يتفوه بكل ما يعرف من ألفاظ و شتائم تليق بحجم الفزع و الغضب الذي يفتك بنا .. عمر من الجنون مر هنا حيث الساعة تقف دقيقة صمت بطول عصور ..

ثم بدأت الأصوات تتقلص .. يقرضها التعب .. أو ربما الهدوء المفروض باسم الموت ..

بدأت اتفقد الأصوات من حولي ..

صراخ الرضيع خفت .. باسم لازال يضرب الأرض بقدمه لكن بقوة متلاشية .. أما صوته فقد اختنق ..

أنا .. أرتجف أكثر .. أقرب البيل من معصمي بحركة مضطربة ..

لاتزال الساعة الواحدة !!

أسلط الضوء الضئيل على وجه باسم الذي كف عن سحق كعب قدمه بالأرض .. ألمح عينيه الجاحظتين و الهلع المتسرب منهما ..

يرتج بدني بذعر أكبر .. صدري ينقبض بشدة ..

الساعة لاتزال الواحدة بعد الظلم ..

الرضيع يطفو فوق رؤوسنا .. الطفلان ينعمان بغفوة هادئة لم تيقظهم الأصوات المجنونة التي كانت تعصف بالمكان ..

الساعة لا تزال الواحدة بعد البحار ..

الساعة الواحدة بعد القهر ..

و العقارب تقترب من وجهي فتلدغ عيني ..

صدري تلتهمه الأسلاك الشائكة ..

صدري يكتظ بأجساد الموتى من حولي ..

الشاحنة ساكنة .. تحمل عصائر الدم المتخثر في العروق ..

الرضيع يطفو فوق أجسادنا ..

صدورنا تعتزل التنفس .. و الهواء يهجر المكان تماما .. وحده _الهواء_

لايطالبونـه بإبـراز هويتـه عـلى الحواجـز .. وحـده لا تغلـق بوجهـه المدائن و الصحـارى و البحـار ..

جسـدي يرتعـد بشـدة ... يتعـارك مـع النفـس الأخـير المهاجـر خـارج قصبـاتي الهوائيـة ..

الكل حولي أموات و تحسبهم نيام ..

أميـل بـرأسي عـلى كتـف باسـم .. أدخـل في خنـدق مـن الضـوء الأزلي .. لـن يمـر أحـد مـن كهفناهـذا إلا بعـد مئـات السـنين.. فلننعـم بموتنـا الطويـل .. لكـن السـؤال الـذي يقـض مضجـع الأمـوات كان ..

(هل سيحكي التاريخ يوما حكايتنا الخرافية ... !!

«خمسة و خمسون جسد ماتوا في جوف الصندوق» .. !!)

- رسائل من فوق الماء -

على ضفة الفردوس

الشمس تحملق بوجهي بغرابة .. لكني أحملق بوجهها أيضا و لا تزعج أجفاني ..
الرمال أكثر نعومة عما يكون عادة .. تداعب وجهي فتضحك مسامي.. كم هو مريح النوم بعد كل التعب الذي أنهك جوارحي لوقت طويل .. أثار البرد والقرفصاء الروماتيزم في مفاصلي .. أظن أنني الآن لا أشعر بآلامها .. لا أشعر بها أبدا ...
ألتفت إلى جانبي دون أن أحرك رأسي قيد أنملة ... أبصرتهم جميعا إلا قليل .. أراهم شاركوني التمتع بإلتحاف الشمس و افتراش الرمال .. بسمة خفية أبصرتها على وجوههم ..
«و أخيرا وصلنا» .. كنت أتمنى لو أننا تنفسنا الصعداء لكن لم يقدر لأنفاسنا أن تصل معنا إلى بر الأمان .. و مثلها حقيبتي التي وددت لو منحوني وقتا لانتشل منها صورتهما «زوجتي و ابنتي» قبل أن يغرقوها لننجو .. لكنهم سلبوني كنزي الوحيد و رموه طعما للموج المفترس ..
أظن وجهك الباسم في الصورة كحورية خلعت ثوب البحر منذ زمن .. جعل البحر أكثر غضبا علي لأني لم أسمح له أن يعيدك لأعماقه ..
لأنني فوت عليه فرصة احتضانك و التهامك .. فقرر أن يثأر مني أن يصب حممه على جسدي فيبتلعني و يعود ليقذفني بعد أن لقنني درسا في الفراق..
يتناهى إلى مسمعي صوت أقدامهم تدوس الرمل مقتربة منا .. يقطعون سلسلة أفكاري يشوشون صورتكما التي استذكر تفاصيلها .. ليتهم وهبوني لحظة تأمل أخيرة لملامح طفلتنا قبل أن يقذفوا الكنز عن ظهر الجزيرة العائمة .. لو أنهم تركوا لي ثانية أخيرة أشبع

ناظري منها .. خصلتان هربتا من ضفيرتها لتلتفا قرب شامة وادعة على جيدها الغض .. وضحكة آسرة بفرح الطفولة ..يغيب وجهها عني لتطل علي وجوه بائسة ترفع الاجساد «الميتة» المستلقية يمنة و يسرى .. تقطع هذا الانسجام الدافيء مع خيوط الشمس .. تعكر صفو الاندماج بجزيئات الرمل .. وتشوش لحظات السكون و العودة .. لحظات الراحة بعد كل هذه الأميال التي قطعناها بالقرفصاء فوق قارب .. و البكاء و البرد والذعر .. و إغراق وجوه الأحبة في محيطات غريبة ..

يقتربون مني .. فلا أستطيع أن أمنعهم .. أن أنهرهم .. لا تقاطعوا لحظات العناق بيني و بين اليابسة فلقد ظننت أني لن أصل.. لكني وصلت.. لا يهم و إن وصلت جثة هامدة..فقد كان البحر أكثر قربا للسماء مما ظننت.. فقد كان الموت هنا أقرب إلي من قذيفة هاون.. أو رصاصة طائشة.. فحيث حسبت أني في نقطة البعد الأقصى .. حيث لايطال جسدي إلا الملوحة و التعب .. كل شيء في لحظة الغرق اقترب تحسست النجوم بأصابعي.. و لامست قعر المحيط.. بحثت يداي عن صورتكما لكني تعبت من التنفس أخيرا.. فلفظت روحي و شددت إليي اليابسة .. ألقيت جثتي عليها و تمددت ألثم الشمس لتخبركما أني آسف لأني أضعت وجهيكما بين الشعب المرجانية ..

على متن الموت

هدوء الليل هذا مريب ..
الـكل يغـط في إرهاقـه .. لا أظـن أحـدا منهـم نائمـا» .. لكنهـم أنهكـوا فغلـب الصمـت ضجيجهـم .. و أطبقـت أجفانهـم رغـما عنهـم .. إلا أنـا أتأمـل سـكون الذعـر في ملامحهـم بعـد نوبـة الهلـع التـي مـرت قبـل دقائـق ..
كانو على شفا موت .. تجرعوا الكثير من أهواله ..
ذلـك عندمـا بـدأت الأمـواج ترفعنـا حينـا حتـى بـدا لي أن السـماء دنـت مـن رؤوسـنا .. و تهـوي بنـا حينـا آخـر فنسـتقي مـن ملـح البحـر قـسرا ونغمـر بالمـاء الأجـاج .. حتـى كـدت أبـصر المـوت ملوحـا» لي بيـده .. تحـت زرقـة الميـاه ...
صخـب الفـزع ملأ المـكان .. كنـت أرتجـف وجلا و أبحـث عـن صـوتي لأطلقـه صفـارة إنـذار عـل أحدهـم في هـذا الكوكـب الـذي بـدا لي مهجورا في لحظتهـا .. عـل أحدهـم يسـمعني .. لا صـوت لي .. أتحسـس حنجـرتي لم تقتلعهـا أسـماك المـوت بعـد .. لكـن صـوتي إبتلعـه الخـوف .. فلـم أصرخ ..
إكتفيـت برجفتـي .. تتخبـط الأمـواج قاماتنـا.. علـوا و هبوطـا.. و المـوت قـاب قوسـين أو أدنى ..
أحـاول أن أسـتذكر مـا أوصتنيـه أمـي .. أي دعـاء كان ذاك الـذي سـيقيني شر الأمـواج .. و يخرجنـي مـن بطـن المـوت.. سـالما .. تتصحـر ذاكـرتي .. في لحظـة الهلـع الأكـبر تـتـلاشى الأحـرف و تنكمـش الذاكـرة و يمـوت الصـوت .. و تصتـك الأسـنان خوفـا مـن دنـو الرحيـل ..
تلقفـت صـوت أحدهـم يصيـح أحـرف صلاتـه .. كان ينـادي الواحـد الأحد ... حاولـت أن أسرق الـصلاة مـن شـفاهه ليرددهـا لسـاني .. لكـن دون

جـدوى .. فلسـاني بثقـل صخـرة .. لسـاني مشـلول أيضـا ..
بـدأ المـوج يهـدأ .. والقـارب لا زال يترنـح يمنـة و يـسرى .. صـاح ذاك الوحيـد الـذي لم يرتعـد خوفـا ونحـن في سـكرات الغـرق .. ربمـا لأنـه معتـاد عـلى ركـوب المـوج و ترويضـه .. أو ربمـا لأنـه ضامـن سـترة النجـاة التـي في حوزتـه .. بـل لعلـه قـد أبـرم صفقـة بينـه و بـين البحـر .. أن نـؤكل نحـن و ينجـو مـن قادنـا إليـه ..
صـاح بنـا أن نقـذف حاجياتنـا في المـاء ليسـتعيد المركـب توازنـه.. بـدأ الجميـع برمـي أشـيائهم .. و بـدأ المركـب يتـوازن شـيئا فـشيء..
مـرت لحظـات الخـوف بطـول سـاعات .. سـكن البحـر وكأن كل ذلـك الجنـون مـا كان .. و خفتـت الأصـوات عـلى قـارب المـوت الصغـير الـذي تكدسـنا فوقـه .. أكتافنـا تـلامسـت مثلـما تـلامسـت هواجسـنا في ذات الوقـت ..

أسـمع صوتـه ينـوح .. متمتـما» كلـمات لم أفهمهـا فصخـب المـوت لازال يصـم آذاني ..
قبالتـي كان .. يـئن .. ذلـك الغريـب الـذي في غمـرة الهلـع كان متشـبثا» بحقيبتـه رافضـا أن يقذفهـا في البحـر أسـوة بالجميـع.. حتـى خطفهـا آخـر مـن يـده و رمـى بهـا رغـما عنـه .. أحـاول أن أصغـي لبكائـه و كأنـه طفـل يبـكي تيهـه .. تناهـى لسـمعي بضـع كلـمات مـن نحيبـه الطويـل و الـذي كانـت ترتفـع نبرتـه ..
« إني آسف لأني أضعت وجهيكما بين الشعب المرجانية ..»

القائمة البيضاء

أنا هنا .. أمي كانت خائفة ألا يلتفتوا لأمري ..
بالغت في خوفها حتى سربته لي ..
نـشرات الأخبـار أفسـدت تفكيرهـا فحسـبت أن المـاء أكثر خطـرا مـن النـار ..
هنـاك في سـماء قريتـي تمـر الطائـرات المروحيـة.. هـي ذاتهـا التـي كنـا حـين نلمحهـا ذات زمـن .. نقفـز فرحـا و نمـد أصابعنـا الصغـيرة ظنـا بأننـا قـد نطـال أجنحتهـا فنتمسـك بهـا لتأخذنـا رحلـة في سـماء القريـة ..
ذات المروحيـات التـي كانـت تمرنـا مـرة في كل عـام .. صـارت تطـل عـلى شرفاتنـا كل يـوم مـرة أو مرتـين .. تمطـر البيـوت لهيبـا .. تدحـرج عـلى أسـطحنا براميـل مـوت مجانيـة .. تسـلب الحيـاة منـا .. تبترنـا حتـى مـا بقيـت أصابـع تلـوح لمرورهـا في سـمائنا .. ودون أن نناديهـا مطالبـين بجولـة في الفضـاء .. أصبحـت تقطـف مـن أرواحنـا بعشـوائية القذائـف كل مسـاء مـن يعلـو ليصـل حتـى سـابع سـماء ..
حزمـت أمتعتـي .. لملمـت كل قـرش أسـتطعت لـه سـبيلا .. دسسـتها جميعهـا .. في جيـب مـارد يحملنـي فـوق لـوح خشـبي يمـشي عـلى المـاء .. يوصلنـي إلى دار الأكارم الكـرام .. حيـث هنالـك أتقـدم بطلـب لجـوء للجنـان .. طمأنـت أمـي أننـي سـألم شـملنا بعـد قبـول أوراق لجـوئي في الجنـة.. ودعتنـي باكيـة .. و خائفـة .. تعـض عـلى شـفتيها بحـزن و تكتـم الـكلام بعدمـا أيقنـت بـأني حشـوت آذاني «قطنـا و طينـا» .. أصـم لا أسـمع إلا صـوت حـماسي المشـتعل داخـلي .. فضجيـج الحـرب أفقـدني حـواسي ..
ركبـت البحـر في رحلتـي نحـو السـعادة .. هـو محيـط يفصلنـي عـن أرض الفـرح السرمـدي .. كـدت أصـل .. لكننـي !!

أنـا هنـا أخـبروا أمـي في نشرة الثامنة .. أن اسـمي في أول اللائحة .. يسـبقني اسـمين أو ربمـا ثلاثـة .. عـلى يمـين القائمـة الممـدودة مثـل سـجادة حمـراء في مدخـل هـذا الفنـاء .. كـثر تجمعـوا حولنـا .. يصـورون و يتعاطفـون .. يلعنـون الحـرب و يطفيئـون أعقـاب سـجائرهم عـلى الأرضيـة الخشـبية حيـث تسـتلقي الحـروف .. فتزعـج غفـوة النقـاط رائحـة التبـغ الأجنبـي .. ألم أخبرك يا أمي أنهم يهتمون!!

أنـا هنـا ثالـث اسـم عـلى لائحـة بيضـاء مثـل قلبـك الـذي يبكينـي دائمـا بـلا سـبب ..

أنـا عـلى ظهـر اللائحـة أتمـدد بـكل أريحيـة .. لائحـة مفروشـة عـلى أرض فـردوس مـا وراء البحـار .. لم يعـثروا عـلى أصابعـي المبتـورة بفعـل أصحاب الوطـن .. و لا عـلى قدمـي اللتـين أختارتـا المـاء كفـن.. و لا عـلى رأسي الغبـي الـذي صـدق تلـك الخرافـة.. لكـن يظـل المـاء يـا أمـي هنـا بـاردا و إن كان أجـاج.. يطفـيء حرائـق الحـرب التـي أشـعلوها عـلى جسـدي هناك..حيـث أنـت الآن تبكينـي لسـبب وجيـه ..

أنا هنا الآن يا أمي ..

لقـد عرفـوني .. عرفـوا اسـمي .. فكتبـوه بخـط أكـثر مـن جميـل في قائمـة الممنوحـين حـق اللجـوء الدائـم في مدائـن الملـح و الصـدف ..

اكتبوهم بالمسك و الريحان
عصافير الجنان ..
غفوا ..قبل مواسم الزهر
فما أينع فيهم عمر..
اجمعوا أشلاءهم
لملموها جسدا من طهر
و اكتبوهم .. شهداء صديقين
تحت خانة الموؤدين
في سجلات القهر ..

صلاة

كان الوقت بين الآذان و الإقامة ..
أنهى الشيخ أذانه عبر مكبر الصوت القريب من نافذتي ..
و تلى ذلك سكون لم يدم اكثر من ثوان تتسع لحلم صغير يلقي بي إلى أرض تحظى بك فوق ذراتها ... حيث ركبت الموج في رحلة راهنت فيها على روحك أملا بأن تصل فتنقذنا جميعا» .. هناك أنت تنتظر بضعة أوراق تكتب لنا عمرا جديدا فوق قارة أخرى ... أصلك في رؤياي بثوان معدودة ..
أغمرك و أهمس دعوتي في أذنك .. دعوة بلقاء قريب ..
ثم تتلاشى ملامح الحلم و يغيب وجهك ..
بدد السكون صخب مروحية تحلق فوق رأس الوقت .. تحوم في وجه السماء ...
و الشمس تخفض رأسها حينا .. و تلوح بضفيرتها يمنة و يسرى .. لكنها تظل محملقة بزجاج نافذتي في تلك الساعة من الظهيرة .. يقترب هدير الطائرة حينا فأرتعد و أركض ألملم تلابيب ثوبي و أزرع طفلنا في حجري و أتلو صلواتي بصوت يرتجف ..
يخفت صوت الطائرة .. ألفظ أنفاسي متنهدة ..
أصمت لحظة و كأنني أصغي لصوت الموت و هو يلتهم أرواح آخرين .. يقطنون على بعد أمتار ...
و تمر صرخة تلك الثكلى في ذاكرتي و هي تستحضر عبراتها و تستجدي صوتها ليكون على قدر المصاب ..
تتشنج عروق كفيها و يطل القهر من تفاصيل وجهها و هي تصيح باسم طفلتها التي أنبت الموت لها أجنحة تليق بطفولتها فحلقت مبتعدة عن قعر الظلم ...

أسـمع نحيبهـا في أذني و هـي تطلـق حسراتهـا بصـوت مـدوي عـل هـذا الكـون يصغـي ..

« لم تركتني وحيدة .. ؟؟!!

لم لَمْ تأخذيني معك ؟!!»

اقـترب صـوت الذعـر الطائـر في وضـح النهـار عـلى مـرأى الشـمس و الكواكـب و الكـون المتفـرج ..

اقترب يقطف الأرواح في قرعة موت مستمرة ..

في لحظـة فـزع أتكـوم فـوق وجـه طفـلي أحـس بأنفاسـه تتغلغـل في صـدري ..

يخطف الهلع أنفاسي فألتقط أنفاس طفلي .. أتشبث به

أغـرز أصابعـي في زنديـه .. و كأننـي أرجـوه ألا يتركنـي وحـدي.. يـصرخ ألمـا مـن قبضتـي المحكمـة عـلى جسـده الغـض .. و تظـل يـداي متصلبـة تتمسـك بأطـراف روحـه ..

و الشـمس تضـم أناملهـا و ترصـف الغيـم عـلى وجههـا تغـض الطـرف عـن شـباكي .. و تختبـئ خلـف منخـل الخـذلان ..

أسـتجدي الحيـاة مـن رائحـة طفلنـا .. و أتـرك صـوتي عـلى قارعـة الخـوف يتوسـله أن نظـل معـا ..

ألا يتركني ثكلى ..

أن يشـاركني أجنحتـه إن نبتـت فجـأة و يحملنـي عـلى مـتن الجـرح حتـى نصـل معـا إلى السـماء ..

و صوت الآذان يرتفع مجددا ..

و صخب الطائرة يدنو ..

و أنت تتلاشى مع وجه الحلم ..

و الأرض حولي تضج بالتكبيرات ..

و حمولة الموت تسقط بالقرب من خوفي ..

طفلنـا ينتفـض في حضنـي .. أئـن بالقـرب مـن صـدره أبحـث عـن أنفاسـه في صـدري .. ألهـث .. أتصبـب وجعـا ..

و لازال الآذان يتردد في سمعي ..
و أنا متعبة من الركض خلف أنفاسي المتبددة ..
و طفلنا ينتفض في حضني .. ألمح على طرف كتفه الأيمن ريشا ينبت في عتمة هلعي ... يضحك طفلي ..
يربت على كتفي بفرح فينبثق من جرحي جناح»..
و صوت التكبيرات يعم الأرض .. أظنهم أقاموا الصلاة..

استسقاء

بـدأ تقويـم النـزف في روحـي .. لا أحـد يعيـش أيامـه بتفـان مثـلي .. لا أحـد يـدرك مواقيـت وجعـه غـيري ..
شـلعت مـن ذاكـرتي كل أسـماء الأيـام و تعـداد الأشـهر .. كل انقلابـات الفصـول و ألفيـات السـنين ...
أنـا الآن في زمـن لا يـدرك ثقـل عبـوره فـوق أنفـاسي إلاي .. أنـا المفجوعـة بـك .. منـذ دهشـة و انكسـار و بضـع شـهقات في ممـرات الصـدر التـي تضيـق و تنحـسر كلـما حـاول دماغـي اللعـين أن يفـسر لوجومـي مـا حـدث ..
- اليوم الأول ..
وقفـت بجمـود .. ألهـث أنفـاسي كمـن اجتـاز صحـراء الربـع الخـالي ركضـا عـلى رؤوس أصابعـه و كان العطـش ينتـشر في حلقـي كانتشـار المـوت في جسـدك .. للحظـات شـعرت أننـي عـلى وشـك أن أجتـث قلـب هـذا الـذي جـاء مـن أقـصى المدينـة يسـعى ليلقـي عـلى سـمعي بالنبـأ ..
كنـت عـلى وشـك أن أمـد أصابعـي في قفـص صـدره أقتلـع قلبـه و أروي هـذا الظـمأ اللعـين في رشـفة واحـدة مـن دمـه ..
هـذا الـدم كثـير عـلى تلـك البقعـة الصغـيرة المختنقـة بـه التـي تسـمى وطـن ... هـذا الـدم اكتسـح كل الشـوارع .. نمـر فوقـه قفـزا مـن رصيـف إلى رصيـف .. و نضحـك لأننـا نجونـا .. لكنـك اليـوم لم تجـد القفـز .. ربمـا تعـثرت فارتطمـت برصاصـة أسـالت دمـك ليرفضـك الرصيـف و يلقيـك في بركـة الـدم الكثـير .. الكثـير حـد الدمويـة ... و أنـا في تلـك اللحظـة كنـت راغبـة بـأن أمـارس حقـي بهـذه الدمويـة ...
لكني .. حينها لم أبك ..
-هاهـم جميعهـم في الخـارج .. ينتظـرون اطلالـة البـؤس في وجهـي لتبـدأ

عيونهـم تلقـي حمولـة الدمـع اللازمـة .. و ألسـنتهم تنـثر عبـارات العـزاء المهترئـة .. و هكـذا يكونـون قـد أسـقطوا غرامـة النفـاق الاجتماعـي المترتبـة عـلى عاتقهـم .. و يمضـون مـن حيـث أتـوا .. ناسـين ذكـرك ..

خرجـت ببقايـا عقـلي الـذي تركتـه لي الديـدان .. هرعـت أفتـش جيوبهـم .. و وجوههـم .. أصيـح بصـوتي الـذي أخرجتـه للتـو مـن القمقـم .. «مـن منكـم سرق دموعـي !! مـن اغتصـب ضحكتـي .. !!»..

أقلـب جيـوب معاطفهـم و ألقيهـم أرضـا كلـما فرغـت مـن تفتيـشي ..حتـى تراكضـوا بعيـدا عـن ضوضـاء صـوتي المجنـون.. و ذهـولي ينصـب عـلى وجوههـم .. و وجـلي منعكـس عـلى إدامهـم .. تأكـدت حينهـا أن دمعـي ليـس بحـوزة مآقيهـم .. و أنهـم مثـلي - في تلـك اللحظـة عـلى الأقـل - لا يملكـون ابتسـامة واحـدة في ملامحهـم ..

خرجـت خلفهـم نبشـت تـراب الأرض عـن ضحكتـي المسـلوبة.. عـصرت الغيـم لم يـذرف دمعـة مـن دمعـي .. حتـى كل علـب المناديـل جافـة مثـل حلقـي

يومها.لم أبك.لم أبك أبدا

-اليوم الثاني ..

صقيـع يعانـق أصابعـي .. و انـا أقـف كشـجرة تمـوت واقفـة قهـرا .. تمـوت واقفـة تعبـا .. و لا أحـد يفكـر أن يقسـم ظهـر هـذا التعـب و يرديهـا سـقوطا لترتـاح قليـلا مـن هـذا الصمـود الـكاذب ..

حدقت بالمرآة لساعات .. لم يحدث شيء ..

لم أبك ..

-اليوم الثالث ..

لازلـت أتنفـس .. و أقـف . أقـترب مـن المـرآة أكـثر أتحسـس بأطـراف أصابعـي هـذه البـشرة الميتـة .. جافـة مثـل الـتراب الـذي التهـم جسـدك بنهـم .. دسـوا في جبهـة القـبر شـتلة .. رشـوا قطـرات مـن المـاء .. و كأسـا مـن دمعهـم السريـع التبخـر.. و الـذي تـلاشى بعـد مغـادرة المقـبرة بربـع سـاعة ..

أنـا أمـام وجهـي الممتـلىء دهشـة .. و المـترع بغبـاء الصدمـة .. لا شيء جديـد .. لم أبـك فحسـب ..

-اليوم الرابع .....

-اليوم الخامس .....

-الأسبوع الثاني ......

تطـور حـركي طفيـف .. لسـاني يترنـح في فمـي ثقيـلا ثمـلا ... يهـذي .. لا أفقـه مـا ينطقـه .. و لا أحـد يفهمنـي .. أقـف أمـام المـرآة مجـددا ..أحملـق في وجهـي الشـاحب ... لازالـت أسـناني ترتـص في سـباق لقطـع لسـاني المترنـح بـلا هـداة ...

أما عيناي فلا شيء يذكر .. لم أبك اليوم ايضا ..

-الشهر الأول

أنا قطعة رخام باردة .. شاهدة قبرك التي لم تبكك ..

لا دمع و لا ملامح .. و لا حتى ابتسامة ..

كومـة أحجـار تمـشي.. موميـاء وجـع محنـط منـذ شـهر .. و ديـدان المـوت لازالــت تنهــش رأسي و تتجنــب الاقــتراب مــن جســدك الطــري حتــى اللحظـة .. خشـية أن أصـب جحيـم لعنـاتي عـلى هـذه الطبيعـة اللئيمـة .. التـي لاتعـرف حرمـة الأجسـاد و الوجـوه .. لا تفقـه قداسـة القلـوب التـي غفـت بـين ذراتهـا

أقـف أمـام المـرآة أيضـا .. أقـف أمـام المـرآة كثـيرا .. أقـف أمـام بـؤسي طويـلا ..أحـدق بوجهـي و لا أبـكي

يومهـا قـررت أن أزورك ..أن أتجـاسر عـلى حـزني و أمـر قـبرك لأول مـرة .. بعـد شـهر كامـل مـن غيابـك الفـادح ..

لا بـد أن أمـر عـلى شـتلة الحيـاة المغروسـة فـوق رأسـك لأسـقيها فتكـبر .. و تمتــد جذورهــا فتنمــو مثــل أنامــلي و تمــر عــلى جبينــك البعيــد .. تتغلغــل في تموجــات شــعرك المنغمــس بالــتراب و تربــت عــلى كتفــك المذبـوح بالرصـاص .. و حينهـا فقـط سـتنبت للجـذور التـي تشـبه أناملي .. سـتنبت شـفتان تقبـلان الجـرح فيـبرأ .. و تتلاشـيان بعدهـا كي لا يقضـا

مضجـع حلمـك الطويـل ...
-عـلى الحاجـز منعنـي العسـكري مـن العبـور بصـوت أثـار اشـمئزازي .. لكنـي أصريـت عـلى حقـي في زيـارة المـوت القابـع خلـف الحاجـز .. و أخبرتـه أني لا بـد أن أسـقي الشـتلة لتنمـو أصابعـي عـلى جبهتـك .. رمقنـي بنظـرة سـاخرة أثـارت حنقـي أكـثر .. كنـت عـلى وشـك التهامـه بأسـناني التـي مـا توقفـت لحظـة عـن الاصطـكاك ..
كيـف لم يفهـم هـذا الحـزن الأبكـم المقيـم في وجهـي .. كيـف لم يستشـعر حاجتـي الملحـة لرؤيـة اسـمك مزخرفـا عـلى لـوح رخـام فتمطـر غيـوم وجهـي ..بمـا يكفـي ليرتـوي حـزني.. هـذا الحـزن الكفيـل بحفـر الـتراب ليلقـي بي إلى جانبـك جثـة قتلهـا الوصـب و خانتهـا الدمـوع .. إذا لم أبـك اليـوم أيضـا ..
كـدت أغـرز أظافـر غـلي في وجهه المقيـت ... لكـن إحداهـن قاطعت نوبة جنـوني في لحظـة .. عبرتنـي ..بعـد أن نعـرني العسـكري بقبضتـه لأفسـح لها المجـال .. مضـت .. عـبرت العسـكري و هـي تلـوح لـه بأصابعهـا التـي تموجـت في تحيـة لا أظـن أنهـا فقـط «وطنيـة جـدا» بـل و «حميميـة جـدا جـدا»..
كان معصمهـا مخنـوق بسـوار مكتـظ بألـوان تشـابه تلـك التـي تلـون بهـا الحائـط خلـف العسـكري و كتـف العسـكري ..
و حتـى حواجـز الاسـمنت كانـت مصبوغـة بتلـك الألـوان .. أظنـه العلـم .. أظنـه احـدى الرايـات التـي نقتـل باسـمها و نتقاتـل عـلى فـروق الألـوان في ملامحهـا .. عبرتنـي بسـحر اللـون المدسـوس في معصمهـا مـع غمـزة و انحنـاءة خـصر منهـا مالـت بهـا إلى جانـب العسـكري .. فـمال الوطـن باتجـاه الهاويـة .. عـبرت هـي .. و بقيـت أنـا .. بـكل شـحوب ملامحـي لم يهتـز الوطـن لوجهـي المتشـح بالمـوت ..
لكنـه شرع حواجـزه في وجـه ضحكتهـا التـي تراقصـت ثنايـا جسـدها عـلى ايقاعهـا ..
مـرت بضحكـة تقفـز عـلى وجههـا ..هـي ضحكتـي .. ذهلـت .. وجـدت

الســارقة لا بــد ان اســتعيد ضحكتــي .. ركضــت وراءهــا لأســترد هــذا التفصيـل الفـارق و المفـارق لملامحـي و القابـع عـلى وجهها الـذي عـبرني و اجتـاز الحاجـز في ثـوان .. هـذا الحاجـز الـذي لم أنفـك أمـارس جنـوني عـلى حـدوده منـذ سـاعة .. سـاعة كاملـة في زمـن الوجـع الناضـح في عروقـي اختزلتهـا أخـرى بضحكـة و انحنـاءة .. و عبـث ألـوان .. فعبرتنـي بثـوان ... هجت كأن كل وحوش الأرض اجتمعت في جسدي و هاجت ...

ركضــت خلفهــا .. فشــدتني يــد العســكري مــن معطفــي .. هويــت .. ســقطت أرضــا .. أنــا المسروقــة نصــف ملامحــي ..

لطمـت الأرض نصفهـا المتبقـي .. ارتطـم رأسي بالحاجز الاسـمنتي .. شـجت جبهتـي ..

الـدم صفـع وجهـي فصحـوت .. كومـة الحجـارة عـلى وشـك الاحسـاس ... شـاهد قـبرك عـلى وشـك الشـعور بـشيء مـا ..

وحوش الأرض حشرت .. و بقيت وحيدة ..

تدحرجت دمعة فوق طين وجهي ..

أنا أبكي .. أنا أبكي أخيرا ... أنا أبكي

كم ضحكت حينها فرحا بموسم الدمع الذي انتظرته طويلا ..

لحظة عثرت على دمعتي أطلت ضحكتي تعانقها

قطاف القدر

كانوا جميعهم يخشون الاقتراب ..
وحدي من دنوت منه دون أي شعور .. أجل بلا شعور تماما ...
اللقطة التي علقت في عدسة عيني كانت مليئة بالصدمة ... و كنت مشلول التفكير منعدم الإحساس في تلك اللحظة .. لكني كنت اقترب ..
كأن عقلي أن يلمس الحقيقة عله يصدق أو أن يلتصق بالفراغ الذي تكاثر فجأة أمامي عله يدرك ما حل بوجه هذا البائع الذي كان يحادثني قبل برهة من انقباض أطرافي و استرخاء أطرافه ..
وقفت أمامه قبل النهاية بدقائق .. تناولت من البسطة المرتفعة أمامه علبتين من السردين .. حين أصر أن يقترح علي تجربة نوع جديد أقل سعرا و بنكهة ألذ كما أخبرني صوته الذي كان لازال يرن و لا زالت حباله مشدودة كأوتار منتظمة في جوف العنق ..
قبلت اقتراحه .. بسط كفه ليقبض المال .. لمحته يرفع الغطاء الرقيق المسدل تحت البضاعة و الذي غطا خشب الطاولة المهترىء .. دس الاوراق النقدية هناك و حياني بابتسامة حانية و هز رأسه الذي كان لا يزال مرتفعا فوق كتفيه .. قابعا حيث يجدر به أن يكون ..
ابتعدت خطوات ثلاث عن ذلك الوجه الذي ظل يلاحقني بابتسامته حتى بعد أن أدرت ظهري آفلا ..
و أنا أعيد دس محفظتي في الجيب الخلفي للبنطال .. سقطت إحدى علب السردين من طرف الكيس الذي حملته كيفما اتفق .. استدرت لأرفعها عن الأرض و رأيته يتحرك باتجاهي ليناولني ما سقط مني .. أشرت له براحتي يدي أن يبقى مكانه ..
هذه اليد الآثمة أومأت له بالمكوث .. فاعتدل بكرسيه و عادت

ابتسامته تلاحقني و أنا أدس علبة السيردين من جديد في الكيس و أربطه ..
رددت على ابتسامته الدافئة بظل بسمة خافت و بارد .. و أفلت مجددا .. و ابتسامته عالقة بخطوتي ..
هي ثوان و خطوتين متتاليتين ثم صراخ يهز المكان.. ودخان يغتصب ملامح الشارع من حولي ..
ذعر.. رائحة الدم خانقة و قريبة ..
وقفت مذهولا .. أحاول أن استدير لأفسر هذا الصخب المفاجيء ..
استدرت بحركة آلية تماما .. استدرت ١٨٠ درجة في مكاني تماما .. لأبصر قذيفة هشمت وجه المشهد ..
لأرقب انفراج السماء و ارتجاج أضلع الانسانية ...
و الموت الساقط بزاويته الحادة على استقامة العنق ..
ذاك العنق الذي كان عموديا على كتف الحياه.. قبل ثوان..
ثوان فحسب .. تفصل بين جسده الذي أوشك أن يغير مكانه وينحني ليلتقط علبة السردين ... و الذي أشارت له كفي اللعينة بالثبات ليتم مشهد الموت كما هو مقدر ...
لو تركته ينحني لكان نجا ... لو أنني ما حشرت كفي بمخططات القدر ...
-المشهد بدا لي غير منطقي ..
«ما الذي حدث؟!»
حين لفظت السؤال .. لطم الجواب وجهه و عاد يرجم دهشتي .. و لا يلجم فيض التساؤلات ...
المشهد لا منطقي تماما ..
فلنعد به إلى البدء إذا إلى حيث كانت الصورة كاملة و واضحة كما تركتها قبل ان أستدير .. ذراعان تمددتا بارتياح تام فوق ذراعي الكرسي الكهل ...
كفان تعانقتا و أصابع تشابكت في لحظة تفكر سبقت ذهول الحواس

هل بدأ المشهد من هنا ؟!... أم من زاوية أخرى ربما ..
بعد أن استدرت لأمضي .. ما الذي حدث ؟!
-بينما الضجيج السريع يلتهم صمت اللحظات الأخيرة ..
كانت ردة الفعل بطيئة جدا مقارنة بسرعة الحدث ..
لم تستجب تلك الأطراف المسترخية لأية حركة .. أو ربما سرعة الموت فاقت لهفة السيالات العصبية ..
«الموت» ... سيد الموقف ..هنا ..
طغت مرارته على حلاوة الروح ..
ظلت الأطراف مسترخية .. الكفان متعانقان .. الأنامل تآزر بعضها في هول اللحظة .. الساق إلتفت بالساق ..
و الوجه لاذ هاربا ينقب عن سماء لا تمطر الموت ..
هل هذه كانت البداية !!
لا أظن .. هي النهاية .. النهاية تماما ..
-الكون رمادي داكن ..
الأرض تتمايل تحت قدميه .. لكن قدماه ثابتتان تماما ..
الجو مغبر .. تتلاشى روائح الاحتراق شيئا فشيء ..
الكرسي ثابت بحمله .. لم يتزحزح ..
«البسطة» ثابتة ثبوت الرأس في الجسد ..
الرأس !! .. الرأس وحده من تهاوى في غفلة من الحياة ...
حين تمخض غيم السماء عن شظية .. قطفت رأسا كان لايزال يحاول استيعاب ملامح الموت ...
أينع فوق شجرة الخلد .. وجه متشح بالهلع ..
وظل عالقا في عمق الأرض جسد يتأمل قبح الواقع ..
و يضحك في وجه ذهولي في مشهد ينقصه الكثير من المنطق ..
متى كان المنطق يتسع للموت !!
الكل مجتمعون على رصيف الذهول .. المقابل تماما لجسد يتربع على عرش الصدمة .. لم يغير شيئا من جلسته .. ذراعاه مفرودتان

على زندي الكرسي .. أصابعه معقودة مثل ألسنتنا.. قدمه تعلو فوق الأخرى.. و كأنه يراقب الموت و هو يخطف رأسه باهتمام شديد .. وحدي كنت اقترب لأتيقن من ملامح المشهد ..
لأتفقد ملامحه التي تلاشت فجأه ..
لم أستطع أن أمد يدي مجددا نحوه .. اشحت وجهي عنه و الدمعة تخنق صوتي ؛لمحت ابتسامته الحانية معلقة على طرف كتفي ..
فأطلقت قدمي للريح .. هربا منها ..

تـلاوة

قــرب البــاب وقفــت .. انحنــت لتغطــي ضفيرتــين بلــون الليــل بشــال أبيــض..

قرصــت خــد طفلتهــا مداعبــة .. فأينعــت ضحكــة الطفلــة عــلى ثغرهــا و راحــت تتحســس بأناملهــا الغضــة ذلــك الشــال ..

«اليوم تتوجين أميرة «

قالت الأم بصوت تملؤه النشوة ..

فأثمر ثغر الطفلة بضحكة أكثر اتساعا .. و برق الفرح في عينيها ..

بعــد ان طلبــت منهــا الأم أن تســمعها مــا حفظــت لآخــر مــرة قبــل مغادرتهــا .. راحــت الطفلــة تتلــو ..

«عم يتساءلون .. عن النبأ العظيم « ..

حتــى أتمــت تــلاوة الســورة بصــوت عــذب و أحــرف لم يكتمــل نطقهــا بعــد ...

ثــم مضــت تشــد الشــال عــلى ضفائرها و تــردد الآيــات في سرهــا.. و تضحك كلــما اســتذكرت أنهــا اليــوم ســتتوج أمــيرة فقــد أتمــت حفــظ ســورة النبــأ .. و غــدا ســتبدأ تصعــد «درجــات الجامــع» و هــذا العــام لابــد أن تتمهــن و تصــل إلى أعــلى الدرجــات فتصــوم حتــى يحــين آذان المغــرب ..

دخلــت المســجد بضحكتهــا .. التــي ماغابــت عــن وجههــا مــذ لحظــة خروجهــا مــن المنــزل ...

و لا زالت تشد بياض الشال على سواد الضفيرتين ..

و تتلو بسرها ..

اجتمعــت الطفولــة تحــت ســقف المســجد .. و أصواتهــم الخافتــة تســتذكر مــا حفظــوا ..

ضج المكان فجأه بصوت يعبر السماء.. والطفولة تتلو ما تيسر لها ...

و الصخـب يدنـو مـن الـرؤوس ... ارتعـدت بـين الجمـع طفلـة فشـدت الشـال عـلى سـواد الضفـيرة ...
و بمـا كان متبقيـا مـن أسـنانها اللبنيـة عضـت عـلى شـفتها السـفلى ... و راحـت تـردد ماحفظـت ..
و الاجساد ترتعش تحت سقف المسجد ...
تحـت سـقف بيـت مـن بيـوت اللـه .. كانـت الطفولـة تتلـو مـا تيـسر لهـا مـن سـورة النبـأ ... حـين سـقط السـقف عـلى شـال أبيـض كان يغطـي سـواد ضفيرتـين ...
تلاشت ملامح القراء .. و تبعثر صوت التلاوة في صخب اللحظة ....
تراكضـت الجمـوع تنبـش الـركام بحثـا عـن وجـه لازال يحتفـظ بملامحـه .. مـا أفلحـوا .. و مـا وجـدوا إلا ضحكـة معلقـة عـلى ضفـة شـال كان قبـل الانهيـار أبيضـا .. و أقسـموا أنهـم لمحـوا عـلى طـرف الضحكـة حروفـا تتلـو «عـم « ...
في مشـهد آخـر ... عـلى ضفـة نهـر الخلـود .. اجتمعـت الطفولـة تحـت العـرش ... تتلـو بصـوت لا يشـوبه فـزع.. «سـورة النبـأ» ..

أرجوحتي في الجنة

الليل ..

إنـه الليـل.. و أمـي أخبرتنـي أن أغمـض عينـي و سـيزول العتم.. و سـتتفتح الـورود في حلمـي إن غفـوت مبكـرا .. سـتزرع الملائكـة لي أرجوحـة في كل ركـن ..

لكـن الضجيـج يقـترب .. أصـوات رجـال يسرقـون الغفـو مـن جفنـي و يقضـون مضجـع الحلـم ..

لكنـي لـن أبـرح غرفتـي و سـأغفو .. لـكي أصـل أرجوحتـي فقـد تأخـرت عنهـا و قـد تضجـر الملائكـة و هـي تنتظـر ..

ما إن أحكمت القفل على مقلتي حتى سمعت صوت أمي تصرخ ..

و صوت سارقي الغفوات يقترب ..

نهضـت مـن فـراشي مرتعـدة .. و قـد سـبق رجفتـي رجفـة أخـي الصغـير « زيـاد» .. الـذي ضج المـكان ببكائـه بعـد أن صحـا مذعـورا عـلى صرخـات أمـي التـي كانـت تبتعـد أكـثر و تعلـو أكـثر رغـم المسـافة ..

فتـح بـاب الغرفـة فجـأة .. بـدد عتـم الغرفـة ضـوء مريـب.. هـل كان العتـم أكـثر أمنـا» ؟!

أظنــه كان كذلــك .. كان عتــم طمأنينــة و هــذا الضــوء الكثــير الــذي انســكب عــلى وجهينــا أنــا و زيــاد.. هــذا ضــوء ذعــر ..

دخـل الغرفـة رجلان أحدهـما أذكـر أنـه كان قـد اضطـر لخفـض رأسـه حتـى يتسـع لـه إطـار البـاب الخشـبي فيمـر ..

كانـا يقتربـان بخطـا» بطيئـة .. تسـنى لي خلالهـا أن أقـترب مـن أخـي و ألتصـق و ايـاه بالحائـط .. نتكـوم عـلى بعضنـا في لحظـة رعـب و ذهـول خطفـت صوتينـا ...

و عـلى صـوت الغولـين فجـأة ..و هـما يتشـاوران في مصيرنـا .. و لا أذكـر

أني فقهت شيئا مما قاله ..
هي لحظات و دخل الغرفة أربعة آخرون يجرون خلفهم نهر طفولة ..
وجوه أطفال الحي شاردة و مذعورة مثل وجهينا .. كانوا مثلنا أيضا يرتدون ملابس الحلم .. أظنهم كانوا يتهيأون للغفو و أظن الملائكة كانت تزرع لكل واحد منهم أرجوحة في كل ركن .. قبل أن يقاطع الغيلان غفواتهم .. ويجروهم إلى غرفتنا وسط هالة الذعر التي ضمتنا جميعا ..
تكدس أطفال الحارة على فراشي .. و اختفت ملامح دميتي بين أجسادهم .. كانت تختنق و كنت أبكي بصمت لأني لا أستيطع انقاذها ..
و كان أخي يلتصق بي أكثر بذهوله الصامت لكن دمعتي التي سقطت على خده حرضت دمعه الذي ما استطاع أن يكتم نبرته ..
و أنا كنت أصلي أن أغفو قبل أن يهرب الليل .. كنت أصلي ألا تضجر الملائكة و ألا تقتلع أرجوحتي ..
كنت أصلي ألا تختنق دميتي ..
لكن صوت بكاء زياد قطع صلواتي .. رحت أمسح دمعه و أهمس له أن يصمت لكنه كان يزداد ضجيجا و صخب ..
اقتربت يد بحجم رأسه الصغير شدته من شعره و رمت به أرضا ... لفظ الغول كلمات كثيرة لم أفهمها جميعها .. إلا أنني أذكر أن منها ما كانت أمي تخبرني أني إذا نطقتها ستهجر الملائكة أحلامي و لن ينبت الحلم لي أرجوحة أبدا ...
عضضت شفاهي غيظا و كنت أفقد الاحساس بجسدي و لا أقوى على الحراك ..
لكن صوت زياد كان في أذني وهو يبكي بصوت أعلى وأعلى.. ويضم قدميه على كفيه وكان يصيح «و الله ما عاد عيدها.. مو بقصدي ... اخر مرة»

زيـاد يبـكي.. والغـول يقـترب.. زيـاد يرتعـد.. والغـول ينحنـي .. دنـا منـه فأغمضـت عينـي خوفـا.. و خفـت صـوت زيـاد...

وأحسسـت بـشيء عـلى كفيـي الذيـن غطيـت بهـما عينـي .. تحسسـت حـرارة غريبـة .. شيء يمـشي عـلى كفـي .. فتحـت عينـي .. حملقـت في كفـي ... «يـا إمـي دم .. « صحـت مذعـورة .. حتـى أن صـوتي اسـتفز الغـول الضخـم ...

لكنـي كنـت ابحـث عـن رأس زيـاد بينـما كانـت اليـد التـي شـدته مـن شـعره تجذبنـي مـن ضفـيرتي و تلقـي بي قـرب قدمـي أخـي ...

أنـا أبحـث عـن زيـاد .. عـن رأس زيـاد .. و شيء بـارد يقـترب مـن عنقـي .. أحـس بخـدر يـسري في جسـدي ...

أبـصر رأس زيـاد قـرب البـاب يحـدق بي و دمعتـي لاتـزال عـلى خـده ممزوجـة بالـدم ...

و شيء بارد يلتصق برقبتي ...

و أسمع زياد يضحك ..

و العتم يغيب و يسطع ... و الضوء يخفت ...

و الوجع يتسلق حنجرتي ... تصيح حبالي الصوتية نغمة أخيرة ..

«عمو رقبتي عم توجعني ...»

و الملائكة تزرع لي أرجوحة في كل ركن ..

و زياد يحدق بي .. و الكون يصير أقل عتم .. اختفى الدم...

زيـاد يركـض حامـلا رأسـه فـوق كتفيـه.. و أنـا أرى الملائكـة تضحـك فرحـا بقدومـي ..

أخبروا أمي أني رأيت الملائكة ..

«رأيت الملائكة يا أمي» .. رأيتها ..

ضفيرتي تلحقني .. أركب أرجوحتي ..

أحلـق في سـابع سـماء .. و ضفـيرتي تطـل عـلى عتـم الأرض .. تلـوح لأمـي .. و يغيـب شـعري في الفضـاء ...

و الملائكة تزرع لي في كل حين أرجوحة ..

إنـه الليـل.. وأمـي أخبرتنـي أن أغمـض عينـي و سـيزول العتـم.. وسـتتفتح الـورود في حلمـي إن غفـوت مبكـرا .. سـتزرع الملائكـة لي أرجوحـة في كل ركـن ..

لكـن الضجيـج يقـترب .. أصـوات رجـال يسرقـون الغفـو مـن جفنـي و يقضـون مضجـع الحلـم ..

لكنـي لـن أبـرح غرفتـي و سـأغفو .. لـكي أصـل أرجوحتـي فقـد تأخـرت عنهـا و قـد تضجـر الملائكـة و هـي تنتظـر ..

ما إن أحكمت القفل على مقلتي حتى سمعت صوت أمي تصرخ ...

و صوت سارقي الغفوات يقترب ..

نهضـت مـن فـراشي مرتعـدة .. و قـد سـبق رجفتـي رجفـة أخـي الصغـير « زيـاد» .. الـذي ضـج المـكان ببكائـه بعـد أن صحـا مذعـورا عـلى صرخـات أمـي التـي كانـت تبتعـد أكـثر و تعلـو أكـثر رغـم المسـافة ..

فتـح بـاب الغرفـة فجـأة .. بـدد عتـم الغرفـة ضـوء مريـب.. هـل كان العتـم أكـثر أمنـا» ؟!

أظنـه كان كذلـك .. كان عتـم طمأنينـة و هـذا الضـوء الكثـير الـذي انسـكب عـلى وجهينـا أنـا و زيـاد.. هـذا ضـوء ذعـر ..

دخـل الغرفـة رجـلان أحدهـما أذكـر أنـه كان قـد اضطـر لخفـض رأسـه حتـى يتسـع لـه إطـار البـاب الخشـبي فيمـر ..

كانـا يقتربـان بخطـا» بطيئـة .. تسـنى لي خلالهـا أن أقـترب مـن أخـي و ألتصـق و ايـاه بالحائـط .. نتكـوم عـلى بعضنـا في لحظـة رعـب و ذهـول خطفـت صوتينـا ...

و عـلى صـوت الغولـين فجـأة ..و هـما يتشـاوران في مصيرنـا.. و لا أذكـر أني فقهـت شـيئا مـما قـالاه ..

هـي لحظـات و دخـل الغرفـة أربعـة آخـرون يجـرون خلفهـم نهـر طفولـة ..

وجـوه أطفـال الحـي شـاردة و مذعـورة مثـل وجهينـا .. كانـوا مثلنـا أيضـا يرتـدون ملابـس الحلـم .. أظنهـم كانـوا يتهيـأون للغفـو و أظـن الملائكـة

كانـت تـزرع لـكل واحـد منهـم أرجوحـة في كل ركـن .. قبـل أن يقاطـع الغيـلان غفواتهـم .. ويجروهـم إلى غرفتنـا وسـط هالـة الذعـر التـي ضمتنـا جميعـا ..

تكـدس أطفـال الحـارة عـلى فـراشي .. و اختفـت ملامـح دميتـي بـين أجسـادهم .. كانـت تختنـق و كنـت أبـكي بصمـت لأني لا أسـتيطع انقاذها ..

و كان أخـي يلتصـق بي أكـثر بذهولـه الصامـت لكـن دمعتـي التي سـقطت عـلى خـده حرضـت دمعـه الـذي مـا اسـتطاع أن يكتـم نبرته ..

و أنـا كنـت أصـلي أن أغفـو قبـل أن يهـرب الليـل .. كنـت أصـلي ألا تضجـر الملائكـة و ألا تقتلـع أرجوحتـي ..

كنت أصلي ألا تختنق دميتي ..

لكـن صـوت بـكاء زيـاد قطـع صلـواتي .. رحـت أمسـح دمعـه و أهمـس لـه أن يصمـت لكنـه كان يـزداد ضجيجـا و صخـب ..

اقتربـت يـد بحجـم رأسـه الصغـير شـدته مـن شـعره و رمـت بـه أرضـا ... لفـظ الغـول كلـمات كثـيرة لم أفهمهـا جميعهـا .. إلا أننـي أذكـر أن منهـا مـا كانـت أمـي تخـبرني أني إذا نطقتهـا سـتهجر الملائكـة أحلامـي و لـن ينبـت الحلـم لي أرجوحـة أبـدا ...

عضضـت شـفاهي غيظـا و كنـت أفقـد الاحسـاس بجسـدي و لا أقـوى عـلى الحـراك ..

لكـن صـوت زيـاد كان في أذني وهـو يبـكي بصـوت أعـلى وأعـلى.. ويضـم قدميـه عـلى كفيـه وكان يصيـح «و اللـه مـا عـاد عيدهـا.. مـو بقصـدي.. اخـر مـرة»

زيـاد يبـكي .. و الغـول يقـترب .. زيـاد يرتعـد.. و الغـول ينحنـي.. دنـا منـه فأغمضـت عينـي خوفـا.. و خفـت صـوت زيـاد ..

و أحسسـت بـشيء عـلى كفيـي الذيـن غطيـت بهـما عينـي .. تحسسـت حـرارة غريبـة .. شيء يمـشي عـلى كفـي .. فتحـت عينـي.. حملقـت في كفـي.. «يـا إمـي دم ..» صحـت مذعـورة.. حتـى أن صـوتي اسـتفز الغـول

الضخـم.. لكنـي كنـت ابحـث عـن رأس زيـاد بينـما كانـت اليـد التـي شـدته مـن شـعره تجذبنـي مـن ضفـيرتي و تلقـي بي قـرب قدمـي أخـي ... أنـا أبحـث عـن زيـاد.. عـن رأس زيـاد.. و شيء بـارد يقـترب مـن عنقـي .. أحـس بخـدر يـسري في جسـدي..

أبـصر رأس زيـاد قـرب البـاب يحـدق بي و دمعتـي لاتـزال عـلى خـده ممزوجـة بالـدم ...

و شيء بارد يلتصق برقبتي ...

و أسمع زياد يضحك ..

و العتم يغيب و يسطع ... و الضوء يخفت ...

و الوجع يتسلق حنجرتي ... تصيح حبالي الصوتية نغمة أخيرة ..

«عمو رقبتي عم توجعني ...»

و الملائكة تزرع لي أرجوحة في كل ركن ..

و زياد يحدق بي .. و الكون يصير أقل عتم .. اختفى الدم ...

زيـاد يركـض حامـلا» رأسـه فـوق كتفيـه ... و أنـا أرى الملائكـة تضحـك فرحـا» بقدومـي ..

أخبروا أمي أني رأيت الملائكة ..

«رأيت الملائكة يا أمي» ... رأيتها ...

ضفيرتي تلحقني ... أركب أرجوحتي ...

أحلـق في سـابع سـماء .. و ضفـيرتي تطـل عـلى عتـم الأرض .. تلـوح لأمـي .. و يغيـب شـعري في الفضـاء ...

و الملائكة تزرع لي في كل حين أرجوحة ..

-في سجلات القهر
قبل أي اسم أو لقب
ابذروا كلماتكم في أرض الصخب
علها تثمر فتات خبز
أو يقين ..
لكل الأفواه الفاغرة
و الأفئدة الملأى بالعتب ..
لا تسكبوا الدمع كيفما اتفق
أمطروه هناك
فوق تلك الشفاه الضامرة
التي لا زالت تنبت ياسمين
رغم سنين الجدب ..
سجلوهم أولئك الجياع
الصامدين
الأحياء الميتين ..
في زمن العهر ..
اكتبوهم أهل الصبر
تحت خانة القديسين
في سجلات القهر ..

بائعة البكاء

شاردة .. أحدق بوجهي الباهت المرتد إلى عيني على كتف ضوء راكض بسرعة تفوق إدراكي ..
تنعكس صورتي عن زجاج واجهة العرض بعد أن تعانق الثوب الذي كدت ألتهمه بنظراتي ..
أرمق وجهي الذي يعتلي خياله ياقة الفستان .. أحاول أن أرتفع سنتيمترين عن الأرض .. أرفع كعبي .. و أشد ظهري فيستقر رأسي مكان رأس «المانيكان» التي ترتدي ذلك الثوب .. في لحظة جنون كامل .. بقيت هناك أجرب رأسي على الفستان أكثر من عشر مرات .. إلى أن أيقظني من حماقاتي صرخة قريبة .. كلمة واحدة كانت كفيلة بأن تهز كياني .. كلمة تحمل لكنة تشبهني .. تشبه وجهي الخافت المنعكس عن بلور واجهة محل تغص بالملابس التركية الراقية ..
صرخت هي .. انهمر صوتها في أذني .. ارتجف بدني .. أطل الوطن علي فجأه .. من زجاج المحل الذي لازلت أقف أمامه ببلاهة و جمود ..
أطل الوطن جميلا.. وقريبا.. صرخت هي مجددا.. شاخ الوطن فجأة..انحنى أمامي..هرم في صخب صرخة طفولية ..
كدت اقترب من الزجاج أكثر لأمسح وجه الوطن الذي بدأ يمطر .. لكن الدخان المتصاعد من صدره خنق أنفاسي ..
ابتعد خطوة و ظللت أرقبه بعيني ..
عادت تصرخ خلفي .. أوشكت أن أستدير لأبحث عن صوتها فأردم بحيرة الدمع التي أيقنت أنها فاضت في محاجرها ..
لكن الوطن كان يتلوى أمامي .. كلما صرخت هي .. أنقبضت ملامحه و تشابكت خطوط الهم على جبينه ..
كانت تنادي بلغة منقوشة على ثغر الوطن .. في هذا المكان أظن

ألا أحد إلانا -أنا و الوطن - كنا نملك المعنى الذي تصرخه أحرفها .. هو كان يحتضر كلما علا صراخها .. و اشتدت استغاثاتها ..

أما أنا فكنت مشلولة تماما .. قدماي تحجرتا في نقطة الذهول تلك .. و عنقي تصلبت باتجاه واحد حيث علقت عيناي .. و أنا أبصر الوجع يمزق جسد الوطن الذي ظهر لي فجأة من قمقم الذاكرة و كأن صرخة الطفولة تلك هي كلمة السر .. لمارد يصارع الموت أمامي على واجهة محل لبيع الملابس في زمن العري و تساقط أوراق التوت ...

رأيته بأم عيني يسقط مغشيا عليه.. و النار تلتهم صدره.. سحب سوداء تخرج من أنفه مع كل نفس يحاول أن يلتقطه ليمسك بخنصر الحياة المقطوع ..

الزبد يخرج من فمه .. و البحر هائج في مقلتيه ..

ساقية دم تنحدر من طرف عينه اليمنى لتشتد غزارتها .. و بكاء الطفلة يمزق ظهري ...

لمحته و هو يعتصر ألما .. يشير لي بكفه المرتعشة و كأنه يوصيني ألا أهتم لوجعه .. أن أستدير لأبصر الطفلة التي تجرحت حنجرتها و هي تشحذ الصوت كسكين على حلقها ...

كان جسدي يرتعش .. و دماغي شبه معطل .. لكن إشارة من كف الوطن كفيلة بأن تجرفني إلى حيث أشار ..

استدرت في مكاني لألحق صوت النشجيج الذي اكتسح مسمعي كطوفان مجنون ..

كانت على الأرض .. عقدت كلتي يديها الصغيرتين حول ساق امرأة .. أما وجهها فكانت قد أخفته خلف تلك الساق.. لم يبد لي منها إلا طرف ضفيرتها السوداء و التي كانت تموج أمامي مثل غصن في مهب الخوف ..

كانت قد سقطت على الأرض متعبة .. لكن صراخها لم يتوقف لحظة .. إلى جانبها قد تكدست كومة من علب المحارم الصغيرة ...

و بالقرب منها قد جثا شرطي بكامل زيه الرسمي .. يمد يده بحنو محاولا أن يطال رأسها .. ليهديء روع ذلك الجسد الصغير و الذي اخذته الرجفة ..

إلا أنها لم تمكنه من ذلك .. و هي تتملص من قبضته كلما دنا ..

و يصير نحيبها أشد ..

و كلماتها تدق في رأسي جيوش أوجاع تصلب الوطن المحتضر خلفي على أوتارها الصوتية المنهكة ..

أطل وجهها حينما أحكم الشرطي قبضته على ذراعها و شدها إليه بجهد محاولا أن يظل حنانه غالبا قوته ...

أبصرت بشرتها المحمرة .. و خديها المضرجين بالدمع ..

مدت سبابتها الصغيرة و لثمتها بشفاه مرتعشة .. لترفعها مجددا و تزرعا في جبينها اللجين ...

و يقتلني صوتها من جديد .. و يصلب الوطن الذي يظل محتضرا لا يعرف الموت .. للمرة الألف ...

«توبة.. آخر مرة.. هلأ بيجي بابا بياخدني.. خليني هون ...

توبة يا عمو الشرطي .. ما عاد بيع شي عالاشارة .. بس خليني استنى بابا ..»

كان الشرطي يحاول أن يخبرها شيئا ما لكنني و إياها لم نفقه شيئا مما نطقه ..

فكل الكلمات مبهمة هنا ...

خلف الأسلاك الشائكة ..

تدحرجت كلماتها كصخور من أعلى قمم القهر لتدق قلبي تحتها ..

كم حسدت الجمهور الذي احتشد حولي في تلك اللحظة و الذين قرأت في ملامحهم عجزهم عن فهم ما ينطقها ذلك الوجه الملائكي الغارق في عبراته ..

كم حسدتهم .. كم تمنيت لو أني لم أعي ثقل الأحرف الملفوظة ...

الكل مشدوه حولي .. و الوطن يحتضر خلفي و صوتها لا يخطيء

تصويب سهامه إلى روحي .. مع كل حرف و كل صرخة ...
بعد محاولات كثيرة لبث الطمأنينة في نفسها .. حملتها يد الشرطي ليركب معها سيارة الشرطة .. و كفه تمسح على رأسها الذي لازال يرتج باضطراب و ذعر ..
سارت السيارة .. تفرق الحشد من حولي ...
و بقيت وحدي دون حراك .. أنفاسي تلهث في سباق مجنون داخل صدري ...
و صوتها لازال يركب صهوة القهر و يروح و يغدو في سمعي دون كلل ..
مشيت خطوتين .. ثم استدرت بسرعة لاتفقد ذاك الوطن الذي تركته خلفي في نوبة موت متجدد .. لكنني في تلك اللحظة .. لم أجده ..
أطل وجهي مجددا أكثر شحوبا .. يلف أكتافي كفن يغص بالنجوم .. نجوم كثيرة حمراء و خضراء ...
و على طرف الكفن قرب الأرض تكدست كومة من غلب المحارم الصغيرة ينبع منها سبعة بحار من دمع ..
و وحدي كنت أكفن و أغرق أمام واجهة محل خارج الحدود ... و طفلة في آخر الشارع الغريب تبكي بصوت يشبه الوطن ... و الوطن يحتضر طويلا ...

الماعون

كانت السماء مكتظة بالغيم .. و الجو يؤذن بصقيع قادم ..
رائحة المطر المقبل تسبقه إلى صدر أحمد .. فيشعر بشيء من الفرح يعبث في قلبه ..
لا يكاد يمسح عن روحه شيئا من ألمها حتى تنهره غربان الجوع التي تنعق في معدته .. كأنها تذكره ان يحث الخطا ليصل قبل أن ينتهوا من توزيع «الشوربة»..
يركض .. فتبدأ اليد المعدنية للوعاء الذي يحمله تنقر الوعاء ..كقرع الطبول و كأنها تعلنها حربا ..
و هي حرب .. ليست حرب أحمد .. لكنه وجد نفسه محشورا فيها .. و كأنه اول ضحاياها و آخرهم ..
و من عساه يتحمل فاتورة الحرب !!
على ظهور من تحتشد كل تلك الدبابات ؟!
و تسير المجنزرات فوق صدورهم !!
لتدهس الأحلام و تنهب الأيام و تشوه وجه الوطن محيلة ترابه إلى مقبرة جماعية ..
من إلا أولئك الأبرياء الذين لا ناقة لهم و لا جمل !! وحدهم يدفعون ضرائب الحرب و تحل عليهم فواجعها ..
و هاهو أحمد واحد منهم .. لعنته الحرب منذ بدئها ..
و لا زالت لعناتها مستمرة ..
يحملها على عاتقه رغم سني عمره الغضة ..
لا زال يركض .. و الإناء الفارغ يقرع طبول الجوع ..
يمر أمام حارته القديمة .. يحاول أن يتجاهلها لكن عينيه تخونانه .. يقف .. تتكاثف الدموع في مقلتيه ..يرصد تفاصيل المكان .. يشم

رايحـة الـدم لا زالـت تعبـق بالـركام ..
هنـا بـدات أولى لعنـات الحـرب .. كـسرت ظهـره الطـري .. و أحنـت عـوده الـذي لم يشـتد بعـد ..
هنـا غـرزت شـظية أظافرهـا في قلـب أبيـه و اسـتلت الـروح مـن ذاك الجسـد .. فتشـظى فـؤاده الصغـير ألـف وجـع لا يليـق بعمـره الـذي لم يتجـاوز العـشر سـنين بعـد ..
وقـف أحمـد طويـلا أمـام الـركام يسـترجع ملامـح المـوت الـذي حـل ذات مسـاء بهـذا المـكان .. يغرقـه دمعـه .. تتـماوج الصـور أمـام عينيـه تجرفهـا عبراتـه ..
تقرقـع معدتـه مجـددا .. يسـتذكر مـا سـها عنـه .. يعـود أدراجـه محـاولا أن ينـزع نظراتـه عـن الحـي المتناثـر أرضـا ..
يركض بسرعة أكبر و كأنه يهرب من طيف اليتم الذي يرتديه ..
يصـل أخـيرا .. يطـل برأسـه مـن أول الحـارة .. الطابـور طويـل كالعـادة .. الطابـور متقهقـر .. منحـن ..
أجساد أذابها العوز .. حنطها الحصار ..
عظـام تختبـيء تحـت ثقـل الملابـس لتحتمـي مـن هـذا الـبرد الـذي ينخرهـا .. لكـن الجـوع وحـده مـا لا واقـي لهـا منـه ..
-يقـترب .. يقـف في نهايـة الطابـور .. وجهـه مينـاء دمـع و عينـاه يغرقهـما المـد ..
لا زال يحـاول أن يكفكـف دمعـه .. و لكـن قلبـه عصفـور مذبـوح يتخبـط داخـل صـدره بـألم ..
ذاكرتـه التـي نضجـت في الحـرب .. عمـره الـذي أتقـن عـده مـع بـدء الحـرب.. رأسـه الصغـير المحشـو بـكل مصطلحـات الحـرب.. وقلبـه الـذي عـرف المـوت و رآه أكـثر مـما يجـب و أقـرب مـما يحتمـل ..
و المرض الذي التهم أجساد أحبته و نهب منها القوة ..
الجوع الذي يعيث في الأزقة موتا ..
الحصار الذي يضيق حتى يكاد يعتصر القلوب و الأوصاب ...

اليتم الذي صيره رجلا قبل الأوان بكثير ..
كل هـذا يحملـه في صـدره .. عـلى ظهـره .. في تلافيـف دماغـه .. زوادة لاجـيء ..
لاجيء صغير هو .. لاجيء منذ نصف قرن أو يزيد ..
أجـل لاجـيء مـن قبـل أن يولـد بنصـف قـرن .. و هنـا الوطـن أخـبره أبـوه ذات يـوم .. هنـا حيـث الجـوع و الحصـار و الحـرب تـأكل أطـراف المخيـم .. هنـا الوطـن .. حيـث المقابـر تتمـدد و المـوت يتكاثـر..و الأحيـاء يمتـص الجـوع أرواحهـم بتـأن موجـع ..
منـذ عامـين و يزيـد ضرب الجـوع أوتـاده في أرجـاء - مخيـم اليرمـوك - والحصـار كغـول يلـف ذراعيـه حـول عنـق المـكان يذيقـه سـكرات المـوت بغـير رحمـة..
يقف أحمد ضمن خارطة الوطن الصغير - البديل - ..
يضرب الجوع أحشاءه بسوط من ألم .. و تخنقه الدمعة ..
يقـف ضمـن الطابـور .. يدنـو أكـثر مـن رائحـة الطعـام .. معدتـه تثـير ضجيجـا أكـبر .. الخطـا بطيئـة .. و الأجسـاد مثقلـة بعلاتهـا و خاويـة مـن القـوة .. تمـشي متهاديـة .. تجـر الأقـدام بعـزم ميـت..
يصـل أخـيرا .. يسـكب الشـاب الـذي يقـف إلى جانـب القـدر حامـلا كوبـا متوسـط الحجـم .. يسـكب في إنـاء أحمـد كوبـين مـن الشـوربة ...
يتخبـط الجـوع في جـوف أحمـد أكـثر فأكـثر كلـما شـم رائحـة الطعـام تدنـو ..
يحمل الوعاء الذي لم تتجاوز الشوربة نصفه ..
يحاول أن يمر وسط الأجساد المترنحة جوعا ..
ترتج كفاه ،تهتز الشوربة في قعر الوعاء لترتفع إلى حوافه..
يزلزل الجوع أوصابه كلما غزت رائحة الطعام حواسه ..
يحـاول أن يسـتقيم بخطوتـه .. لا يملـك التركيـز .. مشـتت بـين جـوع و تعـب ..
تتعثر قدمه باللاشيء.. يهوي..

يرتطم ذقنه بالأرض .. ينفر الدم منه أحمرا قانيا ..
ينزلق الماعون من كفيه .. يندلق محتواه أرضا ..
يتملكه الجزع .. و تلتهم لسانه الصدمة .. تسيل الشوربة فوق الاسفلت و هو يرقبها عن كثب .. أمام عينيه .. لا يقوى على شيء .. تنحدر ببطء نحو بركة طين صغيرة..
تمتزج بالطين .. و دمه ينفر من ذقنه أحمرا .. قانيا..
ينهش سمعه بكاء أخيه الصغير .. يكاد يقتله الجوع .. و أمه تحثه أن يعود بسرعة .. علها تسد رمق أخيه بشيء مما يوزعونه ..
تهمس في أذنه أنه رجلها ،يكاد ينهيها المرض ..
تلف أطراف ثوبها على طفلها ذي الثلاثة أعوام الذابل جوعا و هزلا . في زاوية البيت تتكوم على حزنها و تنتظر عودة أحمد بشيء يقيهم الموت جوعا .
لكن أحمد تعثر بإرهاقه ..
والإسفلت يمتص الشوربة بتأن ..
وعينا أحمد تراقبان المشهد بذهول ..
تمتد الأيادي لترفعه عن الارض.. تنفجر السماء باكية .. فتفيض الدموع في مقلتيه و يجتمع الوجع في حنجرته يكاد يصرخ ...
يرفع الوعاء عن الأرض .. فيه بضع بقايا .. يحمله بتأن ..
الجميع يرقبه بدهشة .. يهمهمون محاولين مواساته ..
لكنه لا يسمع يضج في سمعه بكاء أخيه ..
و السماء تمطر بجنون ..
يمشي تحت المطر .. يرفع الوعاء يتجمع الماء فيه ..
«هذه دموع أبي .. لقد رآني !! « ..
-كلما كثر الراحلون عنا .. صارت السماء أكثر جودا بمطرها ..
جميعهم هناك يبكون بشوق .. و وجع علينا ..
لكننا هنا لا نعلم ..
وصل البيت جف الدم على ذقنه راسما خطا طويلا متواصلا حتى

عنقـه الصغـير ..
و الإناء مترع بماء المطر .. و عيناه سماء تتكاثف فيها الغيوم ..
وبكاء أخيه لم يتوقف ...

لعبة التخيل

قـرب الموقـد جلسـت .. رصـت طفليهـا إلى جانبهـا و كأنهـا عـلى مقعـد في إحـدى الحـافـلات و عـلى أهبـة الرحيـل ..
الـبرد يتسـلل إلى أطرافهـم ينهشـهـم حتـى النقـي .. بهـدوء و كآبـة لفـت أكتـاف الطفلـين ببطانيـة قديمـة انهكتهـا السـنين فغـدت عـلى حافـة الـتلاشي ..
راحـت تنفـخ أنفاسـها في كفوفهـما بالتنـاوب و كل نفـس تلفظـه يخـرج سـحابة دخـان في صقيـع الغرفـة ..
بـدأت الصغـيرة التـي أتمـت بالأمـس سـنواتها الخمـس تنتحـب بصـوت خفيـض بعـد أن فشـلت بكبـح جـماح دموعهـا و تضخـم القهـر في فؤادهـا البـض فـما عـادت قـادرة أن تبتلـع الحـزن بصمـت .. سـال دمعهـا ليغسـل خديـن مـا لامسـا المـاء منـذ أيـام ..
حـين لمحهـا أخوهـا ذو الثمانيـة أعـوام .. نكزهـا بكوعـه بنظـرة عتـب ممزوجـة بغضـب طفـولي .. لكنهـا ردت بنـبرة الدمـع الـذي تحـرر لتـوه مـن مآقيهـا «أنـا جائعـة و بردانـة» ..
و هدرت عاصفة بكائها بضجيج أكثر صخب ...
حاولـت الأم أن تتجاهـل بـكاء صغيرتهـا لكـن حينـما صـار النحيـب صارخـا كـما ينبغـي لـه أن يكـون.. هـادرا كـما يليـق بـه بدرجـة صـوت تناسـب حجـم الشـجن الـذي اسـتوطن جوفهـا الصغـير ..
انتقلـت عـدوى البـكاء لأمهـا فجرفـت كل السـدود التـي شـيدتها عـلى قنواتهـا الدمعيـة مـذ صـار طفلاهـا بـلا أب.. و مـذ أن راح الجـوع ينهـك جسـديهما الطريـين الذيـن أجدبـا كصحـراء تشـتهي رشـفة مـاء تـروي الظـمأ..
الجـوع يأكلهـم مـن الداخـل و الـبرد يلتهـم أوصابهـم مـن الخـارج .. و

اليتـم نكـس أعـلام الفـرح في عالمهـما ..
هـدأ وابـل العـبرات المنهمـرة مـن عينـي الطفلـة فاقتربـت مـن أمهـا تمسـح دمعـا يقطـر مـن أسـفل وجنتيهـا .. و برجفـة الحـزن التـي تختـم كل بـكاء قالـت ..» فلنلعـب لعبـة التخيـل « ابتسـمت الأم ابتسـامة ميتة.. فأردفـت طفلتهـا قائلـة « فلنتخيـل أن الموقـد مشـتعل»

حرائق الأعناب

كنت أمشي .. منهكا أجر ظلي تحت شمس الظهيرة و ألتقم المسافة بكسل و بطء ..
أتمتم في سري سيل شتائم فاضت به حنجرتي و منعني ظمأي وجفاف حلقي من نطقها فاكتفيت بالتمتمة علها تشفي شيئا مما في صدري ..
قاربت من الوصول إلى ساحة السوق و بدأ أنفي يشم روائح الخضار المتعفنة و هي تمتزج مع روائح اخرى طازجة و الفواكه التي باتت محرمة لمعظم سكان هذه المدينة ..
كيف استطعنا أن نظل صامدين كل هذا الوقت تحت هذا الحصار و الجوع .. و أن نمارس من شعائر الحياة كل ما نستطيع إليه سبيلا .. و كأننا نتحدى يأسنا و أنفسنا قبل أن نتحدى الطغاة أنفسهم ..هذا الصمود هو سر أكبر من أن أملك له تفسيرا في هذه اللحظة بالتحديد .. حيث يخيم الجوع فيها على أحشائي و يقرض التعب أطرافي .. بينما ظلي يلاحقني منهكا من شمس آب التي تسقط أشعتها فوق رأسي عمودية ...
بدأت أصوات الباعة تخترق سمعي و كأنها تذكرني بما جئت لطلبه ...
أي مكونات .. أرخص مكونات يمكنها أن تصنع طبقا يسد رمق الصغار و يخرس عصافير معدتي التي ثقب آذاني صوت زعيقها ..
رحت أجول بعيني أرجاء السوق .. و أنا أفتش عن بسطة تحمل على عاتقها ملامح مطلبي ..
و صخب الناس من حولي و الجوع الذي ينهشني من الداخل يشتت تركيزي فيزوغ نظري و أترنح و يتراقص خلفي ظلي ...

دنـوت مـن الرصيـف و افترشـته بجسـدي المترنـح .. ريثـما أسـتعيد تـوازني ..

اسـتوقفت نظـراتي التائهـة وجـه طفلـة صراخهـا يسـبق دمعهـا و هـي تقـف تـضرب الأرض بقدمهـا الصغـيرة و تمـد يدهـا مشـيرة بسـبابتها إلى بسـطة الخضـار الملاصقـة لهـا و التـي كان قـد كـوم البائـع عـلى طرفهـا تلـة صغـيرة مـن العنـب .. و الطفلـة تهطـل دمعاتهـا و تلـح بالإشـارة بسـبابتها و تعيـد ضرب الأرض بقدمهـا دون تعـب ..

بينـما الأم كانـت تقـف و قـد ابتلـع القهـر صوتهـا و غـارت عيناهـا في محاجرهـا في صمـت و حـيرة ..

كنـت أرقـب المشـهد بنظـري الزائـغ محـاولا تنظيـم أنفـاسي المتداخلـة و القصـيرة حينـما ضـج المـكان بصـوت الطائـرات التـي غـزت السـماء فجـأه ...

لملمـت أطـرافي المبعـثرة عـلى الرصيـف و تكومـت في أقـصى زاويـة منـه .. بينـما الجمـوع حـولي تتخبطـط مثـل الأمـواج الهائجـة و تتراكـض في سـكرة دون وعـي ..

هـي لحظـات قصـيرة انتـثر النـاس فيهـا مـن حـولي و الهلـع يلطـم وجوههـم ... و الذعـر يـضرب أجسـادهم فتتصـادم في طوفـان مـن الضيـاع يقـذف بهـم حيـث لا يـدرون ..

و أنـا أرقـب السـماء في حالـة شـلل تـام تملكـت أوصـابي .. كان صـوت صراخ الطفلـة رغـم كل الأصـوات التـي قـد علـت مـن حـولي .. كان صـوت تلـك الصغـيرة لا يـزال يشـق طريقـه إلى أذني ..حاولـت أن أبحـث عنهـا رغـم ارتبـاك النظـر في عينـي و اضطـراب المـكان حـولي .. لم ألمحهـا .. لكـن صوتهـا كان مسـتمرا في الـصراخ بـأذني ..

و السـماء ترعـد في آب ..و الأرض تفتـح صدرهـا لتتلقـى حمولـة المـوت الجديـدة ...

انهمـرت النـار دفعـة واحـدة تلتهـم المـكان .. و الشـمس ماتـت مخنوقـة بغمائـم الدخـان التـي تصاعـدت مسرعـة تبنـي سـقفا فـوق الأجسـاد

المحروقـة ...
كنـت مـكاني .. متشـبثا بـالأرض ..أنفـاسي لازالـت متداخلـة و أكـثر اضطرابا ..لكنهـا لازالـت موجـودة .. لازال نبـضي يـضرب بـاب صـدري بسرعـة و فـزع ... بـدأت أتفقـدني ..
عيناي الزائغتان .. موجودتان كما هما ..
عنقي الطويلة تلوح بذعر مكانها تماما ..
حنجرتي المتصحرة ثابتة لم تقتلع ..
ذراعـاي كاملتـان بحمولـة عـشرة أصابـع تعانقـان ركبتـي الراجفتـين و المغروزتـين في بطنـي ..
قدماي تتخبطان على الرصيف ..
ظـلي ..!! أيـن ظـلي ..؟! فقـدت ظـلي في لحظـة ارتطـام المـوت بوجـه الأرض..
لم أحضنه .. لم يحالفني الوقت لأخبئه في حضني ...
كان العالم حولي في صمت مريب ..
هدوء يأكل أطراف المكان ..
أطلقت نظري في معالم الأرض و انا لازلت متكوما على خوفي ..
السـواد كثـير ..شـمس آب أفلـت مبكـرا هـذا النهـار .. و إني لا أحـب الآفلـين .. العتـم يفـترس المـكان ..
و روائح الموت تفوح بقوة ..
الأرض تلتهم الوجوه التي التصقت بخدها على حين رعب ...
السماء توارب البيبان فيمر الجميع ضاحكين ...
و أنا أبحث عن ظلي ...
أعيـد نظـري إلى الأرض بـين الحرائـق التـي سـقطت مـن كتـف السـماء .. هاهـو .. ظـلي مصلـوب عـلى طـرف الرصيـف ...
بالقـرب منـه وجـه طفلـة و عنقـود عنـب يـضرج خدهـا بحمـرة الخجـل .. شـفتاها يطبقـان عـلى دمعـة ... بينـما لمحـت جسـدها راكضـا إلى أعـلى يعـرج إلى السـماء بلهفـة ..

و هنـا عـلى بعـد خطوتـين و مـوت كان ظـلي يحـترق صامتـا .. لكـن صرخـة الطفلـة لاتـزال في أذني عالقـة .

ما من جدار ليحمل صورته ..
فعلقناها على وتد خيمة ..
لتكون إعلاناً صريح
أن وطني ..
و بيتي ..
و أبي
قد مات ..

غريب

هذا الوجل الذي يعتريني لم أعرفه من قبل ..
الصمت مطبق تماما ..
الطنين الذي ألفته غادرني فجأه ..
و عصف انفاسي تلاشى ..
الآن أفقت ..
أتأمل ملامح المكان .. عرفته جيدا .. لست أهذي ..
لكنني وحدي ...
أحس بضيق في صدري .. و صقيع في أصابع قدمي ..
و أنا وحدي ...
علقت نظري على النافذة الصغيرة المقابلة لسريري ..
الشمس تبدو و كأنها تختنق في نهاية الأفق .. تلوح أشعتها الحمراء أمامي .. عرفت أنها تودعني .. و شعرت بها تحاول ان تطيل وقوفها قبل أن يبتلعها الليل ..
الصمت مطبق ..
خشخشة أنفاسي تلاشت ..
الضيق في صدري يتمدد .. يصل حتى حنجرتي ..
الصقيع يقضم أصابع قدمي ..
الطنين غادرني أيضا .. أنا وحيد .. وحيد و ميت ..
-الأيادي قليلة .. لكنها تحاول أن تحملني دون ان تشعرني بقلتها ...
لكني أعرف .. أنا أعرف تماما كم إصبعا زرعت قبل عمر ..
و مسامي التي التهمها الصقيع .. تشعر بالنقص ... النقص في اللمسات المتركوة على جسدي ..

مسـامي القاحلـة .. تشـعر بالجفـاف .. كل تلـك العيـون التـي ناظرتهـا بضـوء عينـي حتـى كـبرت و صـارت فضـاءات ...
لم ينل جلدي من مطرها شيئا ...
الأيادي القليلة رفعتني ..
دثرتني ...
الكفن ضيق ..
قصير
لا يلائم مقاسي ..!!
و هل للأكفان مقاسات .. ؟!
أضحك من جهلي ...
لكنه ضيق .. لم يقني شر الصقيع ..
كفـن الغربـة لا يمنحـك دفئـا .. كفـن الغربـة يخنقـك حتـى و أنـت ميـت ...
على الأكتاف حملت ..
الغربة تضج في أرجاء المكان ..
الكفن بياضه مشوب بالحمرة ..
الأكتـاف التـي حملتنـي ضيقـة جـدا .. و أنـا كنـت قـد زرعـت منـا كبـا عريضـة .. و قامـات طـوال ..
لكنني هنا وحيد ...
لا ضجيج نحيب .. و لا صخب مودعين ..
أسمعهم لكنهم أبعد من المحتمل .. أبعد مما كنت أتأمل ..
جنازتي الصغيرة ..
حفار قبور .. و ممرضين في الإسعاف ..
و أنا وحيد ...
كثير هذا الموت الذي يعانقني ... يربت على كتفي برفق ..
أتوجس منه .. أحاول أن أبتعد .. يفاجئني جدار القبر ..
الموت يطمئنني ببسمة ..

ها نحن هنا وجها لوجه ..
الشاهدة فوق قبري قصيرة و مهشمة الوجه ..
أسأل الموت منزعجا ..
«لكنها ليست رخام !!»
يضحك القبر الغريب من عبث السؤال ..
يهز الموت رأسه متعاطفا ... «هل نسيت أنك لاجيء!!» ..